الأزمنـــة

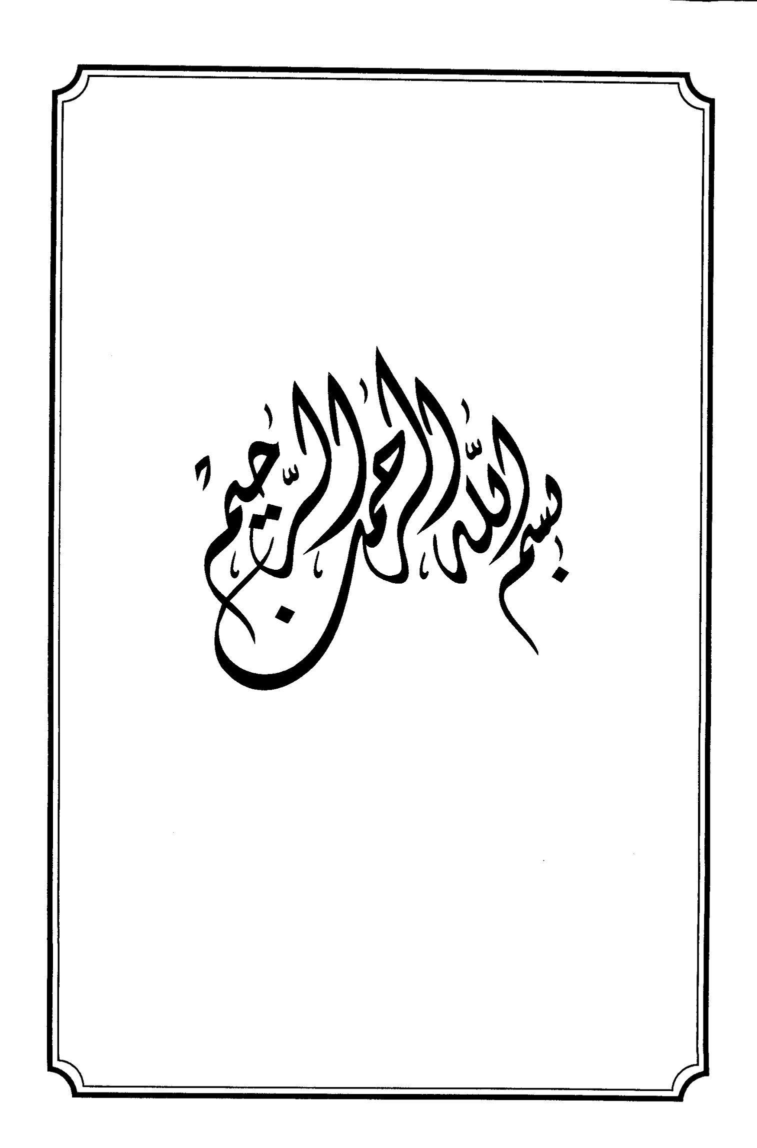
بقلم
سعيد سالم

●

دار الهلال

الغلاف بريشة الفنانة

سميحة حسنين


بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف بكاتب المذكرات

أنا مواطن مصرى الجنسية ، وان كان لابد من أن أذكر ديانتى فأنا مسلم ، لكن أبى مسيحي وأبوه فرعونى ، أما جدى الأكبر فكان يدين بالكون العظيم . أبلغ من العمر أربعة وأربعين عاما ، ولكن المؤكد أن عمرى الحقيقى ضارب فى أعماق الأزمنة القديمة بحيث يصعب تحديده على وجه الدقة والتمام .

محمود أبو النجا

١٩٨٨

مقدمة

تاريخ موغل فى القدم

ليكن نورا فكان النور . ورأى الله أن النور حسن وفصل بين النور والظلمات . ودعا الله النور نهارا والظلمات ليلا . وكان مساء وكان صباح اليوم الأول « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا . انا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا . انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا » .. وانها لخلية واحدة ، لكنها سوف تصير بعد آلاف السنين إلى مخلوق آدمى يسير على قدمين ويمسك بقلم .

٢٣ فبراير ١٩٤٣ .

ولدتنى أمى بعد مضى ساعات من فجر هذا اليوم . تلقفنى رجل لا أعرفه وفتح صنبور المياه على جسدى ليغسلنى من الدم . شعرت بقشعريرة قوية أمدتنى بحيوية هائلة أغلب ظنى أننى سوف أعانى منها طويلا لو قدرت لى الحياة . رغم سعادتى بالخروج من الظلمات إلى النور فاننى صرخت بشدة وتعجبت لأن الحاضرين كانوا يضحكون . أردت أن أسألهم عن معنى ما يحدث ولكنى لم أستطع الكلام مثلما فعل عيسى بن مريم ، فقد عرفت أن الله لم يشأ أن يضفى القداسة على مولدى ، بل أراد لى أن أكون إنســانا عاديا لا يتكلم فى المهد ولا تتغير

أحـوال الدنيا بولادته ، غير أن جـــلالته قد منحنى قبســا من الكشــف لا يستهان به .

عندما جففونى بمنشفة كبيرة كان يشغلنى البحث عن سر وجودى وعن المصير الذى ينبغى أن ننتهى إليه .. أما المكان الذى ولدت به فقد كنت أعرف أنه مكان عريق بتاريخه وملوكه . ويزعمون أن جميع العلوم التى ظهرت قبل الطوفان قد أخذت عن الملك المصرى هرمس المثلث العظمات الساكن بصعيد مصر الأعلى ويسمى خنوخ ويسمى تحوت ويسمى أيضا أدريس عليه السلام وأنه أول من تكلم فى الحركات الفلكية والجواهر العلوية وأول من بنى الهياكل ومجدّ الله فيها ، وأنه أنذر الناس بالطوفان وخاف ذهاب العلم ودروس الصنائع . ولأن أبى مصرى وأمى مصرية فلقد صرت مثلهما منذ لحظة مولدى ، واستمر الأمر على هذا الحال طوال رحلتى بين صراخى وضحك الآخرين .

بعد ساعات من مولدى عبر موكب الملك فاروق متجها إلى مسجد أبى العباس المرسى لصلاة الجمعة . لم يكن يدرى أنه بعد تسعة أعوام وخمسة أشهر من تاريخ مولدى المذكور سوف يثور عليه وعلى زبانيته الاقطاعيين مجموعة من الشبان العسكريين ويضعونه فى باخرته الجميلة التى تغادر البلاد ثم تعود بدونه طبقا للتعليمات وسوف ينبسط الشعب لذلك ثم يقول الشبان فى بادئ الأمر إنهم سيسلمون مقاليد الحكم إلى الساسة المتخصصين لكنهم يعدلون عن ذلك فيما بعد ويقررون أن يتولوا بأنفسهم زمام الأمور ، وبعد عدة أعوام يعتقلون أبى وآخرين .. ولست أدرى الآن شيئا عن ذلك الغموض المحكم الذى أحاط بوفاة والدى وشقيقتى وباختفاء نجلاء أو عن تلك الملايين التى سوف

أودعها بخزانة البنك المركزى المصرى بعد عشرين عاما من الصمت الحزين .

٣١ ديسمبر ١٩٦٧

الخـــــــــروج .

٣١ ديسمبر ١٩٨٧

العـــــــــودة .

تاريخ مجهول

« يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » .. وسوف تفرغ فى هذا اليوم أشياء كثيرة من مضامينها التى تعارف عليها أبناء آدم كالبترول والجنس والدول النامية والكمبيوتر والعنصرية والثورة والاقطاع والانفتاح ، إذ تؤول فكرة الوجود إلى الموجود فترفع الأغطية وتكشف الحجب .. وتأتى الرحلة إلى نهايتها الأبدية .

-١-

عيد ميلادى الرابع والعشرون . طرت بسنواتى الخضراء إلى منزل نجلاء لأخطبها . لم تطر معى أمى فقد كانت عليلة الجناحين ، أما أبى فقد غاب فجأة منذ حوالى ثلاثة عشر عاما . فى ذلك اليوم عشت مشاعر اليتيم . لكن علاقتى بأبى توثقت بشدة – بعد غيابه – من خلال أمى . لم يترك لنا شيئا ، ولهذا تبادلت مع الفقر كراهية عميقة ، الا أن احدنا لم يستطع القضاء على الآخر حتى الآن . فى النهاية عقدنا معا مصالحة سرية تحفظ لكل منا ماء وجهه أمام الآخر ، وبقيت أنا والفقر والثراء وبقيت معنا علامات استفهام لا تحصى حول أهمية أن أكون فقيرا أو غنيا أو رجلا أو امرأة أو حوتا أو قطة . ورغم هذا فقد وضعت لنفسى نظرية تجمع بين فكرة الخلية الواحدة التى آلت فى النهاية إلى جدى الأكبر كما نادت بها نظرية التطور ، وبين فكرة بداية هذا الوجود بجدنا آدم كما أكدت الكتب السماوية الثلاثة . وبناء على نظريتى هذه فاننى لا أجد غرابة فى أن أتصرف فى مواقفى الحياتية الهامة كسمكة أحيانا ، وأحيانا كغراب وأحيانا أخرى كديناصور .

اليوم مثلا أنا عصفور يغرد على كتف الرجل الذى أنجب نجلاء . مهندس عجوز متقاعد . يدمن تدخين البايب والاستماع إلى الموسيقا الكلاسيك وقراءة التاريخ والفلك . لا يخالط الأصدقاء ولا يغير من طقوسه اليومية – تحت أى ظرف – وعلى رأسها اختلاؤه بنفسه على مقعد معين ليمارس عزلته المقدسة هائما فى هيولياته الغامضة

السعيدة ، متأملا فى ماضيه وحاضره ، منفلتا من اطار الزمن القادم والمكان الآتى .

نظرت إلى عينى نجلاء الخضراوين فرأيت الحياة جميلة وعولت على الحب كثيرا . احتميت بصدرها ورحت فى قلق دافئ أعبث فى جناحى بمنقارى المدبب ، حين سمعت باعة أبي قير الجائلين يتبادلون اللعنات والسباب أسفل المنزل بينما تعالت صيحاتهم القبيحة حتى أننى بهرت بشدة من الحكمة فى وجود الإنسان على الأرض فقال عمر بن الخطاب ان النساء ثلاث . امرأة مسلمة تقية ودود تعين بعلها على الدهر ولا تعين الدهر عليه وأخرى تراد للولد لا تـزيد على ذلك وأخرى يجعلهـا الله غلا فى عنق من يشـاء . « وفينيتا فلمان » فتاة غير مسلمة . أراسلها منذ كنت طالبا فى الثانوية . أكتب لها أننى أدرس المحاسبة وأقرأ القصص وأصطاد السمك وأحب الفتيات ذوات النظرة المفكرة المتأملة . تكتب لى عن تجوالها مع صديقاتها وأصدقائها فى رحلات جماعية إلى دول أوروبا بالبواخر والقطارات والعربات . أنا ونجلاء نعانى الخوف والعذاب حتى نلتقى بعيدا عن العيون . لو لمحتنا عين قبل أن تتم الخطوبة فهى كارثة . لا تنتهى العلاقات السرية عندنا بالزواج ، فالشاب يقول لنفسه فى وقار مضحك .

– مادامت هذه الفتاة قد قبلت إنشاء علاقة معى فى السر ، فلابد أنها قبلت بغيرها مع غيرى ، ولهذا فلا بأس من الاستمرار معها ، ولكنها غير جديرة بأن تكون زوجتى .

تثير خطابات صديقتى الفنلندية فى نفسى كثيرا من الحسد تجاه الاوروبيين . تصف لى حياة كالحلم وتبعث إلى بصور يثير جمالها

جنونى فأنظر إلى الخرابة المحيطة بمنزلى حيث تصب مياه المجارى العفنة ويلعب الأطفال الحفاة وأتساءل لماذا لا أعيش أنا تلك الحياة - وآه من لماذا هذه - وأقول عليك اللعنة يا عثمان يابن مرعى ، بارك الله فى دنس ضميرك المتخمر ، فالمرء يثاب أحيانا رغم أنفه .

فى مرحلة الدراسة الاعدادية قال لنا مدرس التاريخ إن الاستعمار هو السبب الوحيد لتخلفنا . فى العام الماضى زرت مدينة الاسماعيلية . سحرنى جمال البيوت المشيدة على الطراز الفرنسى والانجليزى . ثملت عيناى بلون الخضرة المنتشر فى ربوع المدينة . اســتنامت أعصابى لســكون الشوارع وخلوها من تزاحم المارة والعربات . تذكرت مدرس التاريخ وأشفقت على عقله الفارغ لا حبا فى الاستعمار وانما لأسباب أخرى لا يشوقنى ذكرها الآن .

نجلاء بارقة الأمل الأولى فى حياتى وما أروع أن تبدأ رحلة بالأمل . سكندرية مثلى لكنها بيضاء الوجه بنية الشعر . تتعانق على وجهها أنغام متجانسة من سلالات الفراعنة واليونان والرومان والعرب . أتوحد بها معهم فى جولاتنا بحديقة أنطونيادس والمتحف الرومانى وأحياء الاسكندرية القديمة التى شيد الايطاليون أجمل مبانيها . نتفرج كطفلين على الأعمدة والأبواب والمداخل والنقوش والأقواس والتماثيل فيتبدد أمامى شبح عثمان بن مرعى الكريه . أتعجب لماذا فسق أبليس عن أمر ربه وأبى أن يسجد لآدم تمردا واستكبارا ، ثم أشعر بشماتة لما آل إليه من مصير بطرده من الجنة ، ولكنى لا ألبث أن أشعر بالخوف من أفعاله معى بحكم جيرتنا على الأرض بعد أن طرد جدى

هو الآخر إليها رغم أنف داروين . عفوا يابن مرعى ، فأنت لا تفهم فى مثل هذه الأمور .

- يا محمود .. أنت تعشـق حياة الأبهـة ، ولكن العشـق وحده لا يكفى .

- لست أنكر ذلك ، لكننى قانع بحياتى على أية حال .

- سأمنحك فرصة أخيرة لتنفيذ أوامرى .

★ ★ ★

السيد المحاسب / محمود أبو النجا الفوانيسى .

تقرر خصم خمسة أيام من راتبكم الشهرى تنفيذا للبند رقم ٦ من لائحة العقوبات ، وذلك لعدم جديتكم فى تنفيذ التعليمات الصادرة إليكم من السيد / مدير البنك ، هذا ونتذركم بتوقيع عقوبة أشد فى حالة تكرار المخالفة .

توقيع . مدير الشئون القانونية

★ ★ ★

- لو استمر الحال على ما هو عليه سأقدم استقالتى .

- حتى الاستقالة لن تكفينى عقابا لك .

يا « أبو النجا » . دع عظامك التى نخرها الدود وتعال إنقذ ابنك من الاتجار غير المشروع فى العملة . ثلاثة أعوام مضت . منذ تخرجى والتحاقى بالبنك يصر هذا الشيطان على تلويثى . لماذا اختارنى دونا عن غيرى ؟ .. إنى أخاف هذا الرجل أكثر مما أكرهه .

– مبروك يا بنت .

– مبروك يا ولد .

وقبلتها فى الظلام .. لم يرنا أحد .

– سنلتقى بلا خوف .. فى أى وقت .

– ونحب بعضنا كما نشاء .

مرة أخرى .. عولت على الحب كثيرا .

★ ★ ★

طلبت أمى من الله أن ينتقم من اليهود وهاجر صديق لى إلى كندا بعد أن استمع إلى اذاعة تل أبيب ثم أمعن تفكيره فى مستقبله لمدة ساعة واحدة – كما قال لى بلسانه – ولم يعد كما لم يخبر أحدا بعنوانه .

سخرت من تشاؤمه ، أما نجلاء فكانت منشغلة بحبى عن هذه الأشياء حتى أننى كنت واثقا أن مقولة عمر بن الخطاب عن المرأة سوف تصدق بالنسبة لى فى احتمالها الأول فحمدت الله كثيرا ودخنت سيجارة واقتنصت لحظة سعادة وتأملت بسرور أطياف مستقبل وردى . فى لمح البصر تبدد الطيف وتتابعت صرخات أرامل الشهداء وضربنى عثمان مرعى فى مقتل فسقط سوريال شهيدا فى باب زويلة وانهارت زوجته تيريز فنقلوها إلى المستشفى واستبد الكدر بقلوب الجميع .



أغارت بعض قبائل همجية من الرعاة تعرف باسم الهكسوس على مصر وسادت البلاد نحو خمسمائة عام .

وكانت قبيلة أخرى تعرف بالعبرانيين تهيم من قبل على وجهها فى البلاد تلتمس المأوى حتى حطت رحالها فى مصر وعاشت فى حماها ما يقرب من خمسة قرون . وعندما اجتاح الهكسوس مصر سعى هؤلاء العبرانيون إلى خدمة الغازى ورضوا أن يستخدمهم جباة للأموال كما قاموا له بأعمال مدنية أخرى ولهذا تركهم ينعمون فى مراعيهم آمنين ، ومن ثم فقد نفر منهم المصريون أشد النفور وأضمروا لهم أشد المقت . ولما تمكنوا من طرد الهكسوس من وادى النيل نزلوا بالعبرانيين إلى مرتبة العبيد فسخروهم فى تعبيد الطرقات وبناء المعابد وراحوا يسومونهم العذاب دون أدنى أمل فى الخلاص لأن الجنود المصريين كانوا يحرسون حدود البلاد . وظل العبرانيون على هذا الحال حتى خلصهم من بؤسهم يهودى شـاب - صار نبيا فيما بعد - يدعى موسى .. ومن سوء حظ عمى أن قبيلة أخرى تعرف بالكنعانيين كانت تسكن الأرض التى استقر فيها موسى بقومه - بعد خروجهم من مصر - حيث شيدوا لأنفسهم معبدا هائلا بمدينة أطلقوا عليها اسم « أورشليم » وراحوا يمارسون عبادتهم للاله الواحد يهوه بعيدا عن آمون وآتون . ولقد أزعجوا نبيهم وحيروه كثيرا حتى مات . وحقيقة الأمر أننى لم أكن أتصور أن يعود هؤلاء العبرانيون إلى مصر يوم ٥ يونيه ١٩٦٧ ليقتلوا ابن عمى الحبيب لطفى وصديقى الحميم سوريال ولتستحم نساؤهم فى قناة السويس عاريات بلا حياء ، ولكنى لم أتعجب كثيرا لما حدث لأن الأيام أكدت لى أن كثيرا مما لا أتصور حدوثه يحدث ، وكثيرا مما أتيقن من ضرورة حدوثه لا يحدث . فى ذلك التاريخ لم يكن لى جسد ولا دماغ ، وانما كنت روحا تهيم فى الزمان .



نجح مروان - ابن عمى - فى تهريبى من مطار القاهرة بعد ساعات من صدور قرار بالقبض على بتهمة الاتجار فى العملة فى زمن الحرب .تحفظت السلطات على حقيبة مكدسة بآلاف الدولارات تخصنى ولا أعلم عنها شيئا رغم أن العدل من صفات الله وأسمائه الحسنى . تبين لهم فيما بعد أن الدولارات مزورة فأضيفت إلىّ تهمة ثانية . برزت أمامى أسنان عثمان مرعى الصفراء فى لون ابتسامته القاتلة . ماذا فعلت بك أيها المخلوق الغريب ؟ . لست أظن أن الله قد أرسلك لايذائى والتلذذ بتدمير مستقبلى . مازلت أعالج بالعقاقير المهدئة للعصب الباراسمبثاوى بمعدتى منذ لحظة تدمير السلاح الجوى المصرى . تناولت من الكحوليات ما فوق طاقتى وكذا فعل الجميع بالملهى فى آخر ليلة من ليالى هذا العام اللعين .. وإلى مائدة مجاورة جلس عجوز يشرح فى حماس لمن حوله ماذا حدث لمصر . يشرب بشراهة ، ثم يقوم فجأة ليرقص وحده على أنغام البوزوكى أمام المائدة بعيدا عن الحلبة الفائرة بالشباب ، مصفقا بيديه بقوة ، ثم يعود إلى مائدته ليواصل الشرح والايضاح .

- أمامنا عشر سنوات على الأقل حتى نستطيع طرد اليهود من مصر .

عندما أوشك الفجر على البزوغ كنت أجمع بمنديلى الرخيص دموع فرحتى بالنجاة ودموع حزنى على خروجى من وطنى طريدا مقهورا بلا حول ولا قوة . إنى بحاجة إليك أيها الوطن الأرض الأحباب فكيف تلفظنى هكذا بعيدا عن نجلاء ؟.. فى المسجد طاف بخاطرى لقاء

مستحيل بينى وبين هذا الشعب العدوانى بالسليقة – مثل عثمان مرعى – لأعرف منه كيف تعيش الآن تلك القبيلة القادمة من موطنها القديم فى بلاد أور على مصب نهر الفرات منذ عشرين قرنا قبل الميلاد ، ولأعرف كيف يفكر أهلها ويخترعون ويبتكرون . لكنى تذكرت اللاءات التى خرجت من تحت عباءات ملوكنا ورؤسائنا العرب وعقالاتهم المذهبة وأربطة عنقهم الفرنسية ، فمنعت نفسى عن الاحلام واستعضت عنها فى المساء بقراءة كتاب عن حياة العلماء الثلاثة اينشتين وماركس وفرويد .

بعد الانتهاء من قراءة الكتاب وجدت نفسى – رغم مصيبتى المقبلة – قادرا على تلخيصه فى صورة أعضاء ثلاثة طبقا لترتيب العلماء المذكورين ، فكانت تلك الاعضاء هى الرأس والمعدة وعضو التناسل . ثم قالت لى أمى ان نجلاء فتاة طيبة وبنت حلال فقلت لها اننى أرى المستقبل فى عينيها مشرقا بأنوار متلألئة تجذبنى فأطير إليها وأذوب فى طمأنينتها الراسخة ويتحول فمى إلى منقار أحمر صغير ويهتز ذيلى طربا .

أى فزع سوف يفترس هاتين العينين الصافيتين عندما تعلم صاحبتهما أننى هارب أو مطرود .. أو ربما مجرم ؟ .. فى اليوم التالى لخطاب النكسة الشهير كان السمرى ساعى مكتبنا المصاب بارتجاج قديم فى المخ يتجول هائما فى أروقة البنك مرددا .

– ساحت وناحت يا سِمَرِى .

لم يستطع أحد أن يحصل منه على تفسير لعبارته .. ورغم فهمى لقصده واحترامى لموقفه ، الا أننى لم أفهم ما كان يقصده عبد الناصر

حين قال إنه توقع هجوم العدو من الشمال فجاء من الشرق ، أو من الشرق فجاء من الشمال . لم أعد أذكر على وجه التحديد قوله فقلت من أعماق قلبى النازف .

– وصيتك أمى يا مروان . لم يعد لها أحد غيرك . أنا لا أثق فى نديم .

– اتكل على الله ولا تنع هما . أمك هى أمى .

آه يا مطار القاهرة . ما أخطر أن تدمع عينا رجل أحب أرضه فقهرته ، واحتاج إلى دفئها فلفظت به إلى صقيع المجهول « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين ، فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين » .

★ ★ ★

يكبرنى أخى نديم بأربعة أعوام . ينام إلى جوارى فى نفس الفراش . يعود من تجارته ورائحة العرق تفوح من جسده وقدميه متأبيا أن يغتسل . يعجز عنى النوم فالغرفة ضيقة والبيت ضيق والبلد ضيقة والرزق أضيق ، بينما الكون فسيح لمن يعرف كيف يريد الانطلاق فى رحمته الشاسعة .

فى الصباح أفتح نافذة غرفتنا المطلة على محطة قطار أبى قير . أتبادل مع نجلاء التلويح بالأيدى فى ابتهاج يعلو على قمم السحاب . أنا من نافذة المنزل وهى من نافذة القطار الذى يحملها إلى مدرستها – كل يوم – لتعلم الكيمياء للفتيات . وأستبقى كفها الرقيق فى حضن عينى

عندما أجلس إلى مكتبى فى البنك ليحجب عنهما بعضا من قبح عثمان مرعى ويخفف من حدة ايذاء معالمه لمشاعرى .

فى المساء أعانى من عجزى عن التكيف مع رؤية نديم للحياة الإنسانية وموقفه منها . اشتبكت معه يوما فى شجار لفظى عنيف بسبب رائحته المقززة وبخله الشديد فى الانفاق معى على شئون المنزل . حاول أن يصفعنى فوقفت أمى بيننا وسقطت متشنجة على الأرض ، حين انفتحت أمامى نافذة جديدة على ساحة الحياة الأولى رأيت منها للأمومة معانى جليلة تكاد تستحيل على الادراك .

فى اليوم التالى توجهت إلى سمسار عجوز واتفقت معه على أن يؤجر لى شقة مفروشة . غمز لى بعينه السليمة الحمراء معتقدا أنه عليم بدوافعى الخفية وراء انسلاخى عن أسرتى . كان واضحا أنه لم يدرك كم كنت أعانى من حزن عميق لأنه لو أمعن النظر فى وجهى لرأى رأس جمل وفر مذعورا إلى بيته .

على مضض تناسيت حزن أمى الشديد من فعلتى الرعناء ولكنى واثق أننى سأعود إلى مملكتها . الشقة واسعة ونظيفة ومرتبة . من نافذتها المطلة على البحر أتنسم هواء حريتى الحقيقية . أنعم بتوحدى مع الموج فى رحابه الشاسعة . أتصعلك على الشاطئ . أقرأ قصة . أستمع إلى الموسيقا . ألتقى بأصدقاء السوء المسمين بالادباء والفنانين ، فهؤلاء المجانين الأصلاء هم عالمى الحقيقى القريب من روحى قربه من قلبى . المزعج فى الأمر أنهم بلا استثناء يعانون من الفقر . معظمهم يعملون بوظائف وأشغال متواضعة . أحدهم قذفته زوجته بآنية طبخ كبيرة فى وجهه وألقت بكتبه إلى الشارع عندما احتدم بينهما النقاش

وطالبته بأداء واجبه نحوها كزوج ثم نحو أبنائها كأب . يومها قابلته فى الترام . كان يدخن بشراهة تحت لافتة كبيرة معلقة بمنتصف العربة ومكتوب عليها « ممنوع التدخين » . قال لى بحسم لا نظير له

– سأطلقها بنت الكلب وأتزوج بغيرها .

غير أنه لم يطلقها حتى تاريخ انتهائى من كتابة هذه المذكرات المبعثرة وتجميعها واعادة ترتيبها وتجديد صياغتها ، وان ظل يلعن أباها فى كل مكان وينجب منها البنات والصبيان . هذا العالم السيريالى يبهرنى فأنا أمل أى حكاية عادية وأى شئ عادى . أصحابى المجانين تفكيرهم غير عادى . عثمـان مرعى إنسان غير عادى . حياتى فى الشقة الجديدة حياة غير عادية . أنام وحدى الآن بعيدا عن كف نجلاء الرقيق . حرمنى نديم من رؤيتها كل صباح . لا يمكن أن أدعوها لزيارتى هنا وأتمنى أن أدعوها . ما أقسى روعة الوحدة . أتسامر مع مكاوى – شريكي فى الشقة – وزوجته رجاء . نتكلم فى الطرشى والجندوفلى والنكسة وأم الخلول . عندما سافر يوما لزيارة أهله بالصعيد ألقت رجاء بنفسها إلى جوارى فى ابتذال أزعجنى وقالت ببؤس شديد .

– ان مكاوى غيور جدا .

فى الليلة التالية قالت لى بنبرات صوتية مختلفة ان مكاوى يؤمن بالجن والعفاريت وأنها تخافه ولا تحبه فازداد نفورى منها . فى الليلة الثالثة هربت منها وأغلقت على نفسى باب غرفتى بعد أن عدت قرب الفجر . قبل أن أغمض عينى على الفراش خيل إلىّ أنها تنام عارية بجوارى فأوليتها مؤخرتى ونمت وتصاعد شخيرى إلى سماء الغرفة . يقول أصدقائى ان موقفى من المرأة لا يصدق . معظمهم يعتقدون أننى

كذاب لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الأشياء والمواقف والأشخاص الا بعيون كاذبة . ولهذا التمس لهم العذر وأرثى للجوع الجنسى المسيطر على عقولهم وظنونهم على مدى آلاف من أعوام توارثوا فيها تلقين مفاهيم وأعراف يجيدون ترديدها والامتثـال لهـا ولكنهم لا يوافقون عليها .. عاد مكاوى من صعيد مصر . وجهه مستطيل يذكرنى بالفأر . يصافحنى بقوة وينهال على بالشاى والسجائر حتى ينهكنى . يتعامل معى وكأنه يعرفنى منذ مائة عام . عيناه حالمتان لدرجة مثيرة . فى لحظات حملنى بعينيه ووضعنى فى قلبه .. فى مساء ليلة أخرى – بعد أن توطدت صداقتنا – عاد من الخارج مخمورا فدخل غرفتى عن طريق الخطأ . بعد قليل جاءت رجاء فنظرت إليه نظرة ذات مغزى . بدت معالم الخوف على وجهه . نظر إليها ثم إلىّ كما لو كان واقعا تحت تأثير مغناطيسى منوم . أمرته أن يغسل وجهه ويرتدى ملابس النوم . امتثل لأمرها على الفور . فى مساء آخر حضرت أم رجاء وشقيقتها . بعد قليل تنبهت حاستى البصرية بحدة شديدة ومفاجئة إلي تفاصيل المكان الذى وجدت نفسى بين يوم وليلة أعيش به . غرفة متواضعة فى شقة قديمة تطل نوافذها على البحر المتوسط . مائدة . سرير . دولاب . مجموعة مقاعد عريضة . مكتبة صغيرة تخلو من الكتب . قمع من البخور مشتعل وموضوع على المائدة . تعبق الغرفة بأبخرة الدخان المعطر . رجل – أنا – يكتب على الآلة الكاتبة . راديو متهالك يذيع أغنية راقصة . رجاء وشقيقتها ترقصان . مكاوى يصفق لهما مبتسما فى استياء خفى ممزوج بالذهول بالكحول بالإنس بالجن بالنفـاق المصرى . فمه يزداد تمددا واستطالة حتى يلمس الأرض . أم رجاء

غليظة التقاطيع تدخن الشيشة بنهم . تلف رأسها بعصابة حمراء قانية . شديدة الشبه بابنتها . مكاوى ينحنى أمامها بأدب مضحك لشدة اتقان تمثيله ويغير لها الفحم . أتوقف عن الدق على الآلة وأشترك فى التصفيق على الرقصة . رغم اهتمامى بالنظر إلى نهدى شقيقة رجاء فاننى رأيت أن أضع حدا لما يحدث لى فقررت أن أحتمل الحياة مع نديم وعدت إلى أمى وتحولت إلى نعامة . فتحت المظروف الذى وصل منذ أيام إلى المنزل وعليه خاتم كلية التجارة .

الاسم . محمود أبو النجا الفوانيسى

تاريخ الميلاد . ١٩٤٣/٢/٢٣ .

المؤهل . بكالوريوس التجارة . شعبة المحاسبة .

التقدير . جيد جدا .

تاريخ الحصول على المؤهل . يونية ١٩٦٤ .

وقد قدمت هذه الشهادة بناء على طلب المذكور وعندما بلغ الأمير بوذا الثلاثين من عمره خرج من القصر يوما بصحبة سائق عربته تشنا، حين شاهد عجوزا محطما أنهكه العمل فأصابه انزعاج بالغ . قال له تشنا ان العالم ملئ بالتعساء ويستوى أن يزيد أو ينقص عددهم واحدا . حزن بوذا وعاد إلى قصره وزوجته وأمه وأبيه ولم يقل شيئا . ثم غادر القصر مرة أخرى فشاهد رجلا أضناه المرض . سأل تشنا عن السبب فقال له ان العالم ملئ بأمثاله ولا حيلة لأحد فى ذلك ولا مبرر لشدة الاهتمام بمثل هذه الأمور . حزن بوذا حزنا شديدا وعاد إلى قصره وزوجته وأمه وأبيه ولم يقل شيئا . ثم غادر القصر مرة أخرى حين

أجفلت الخيل فجأة أمام جثة رجل أفسدها العفن وفاحت رائحتها البشعة فقال له تشنا ان العالم ملئ بالأموات وليس من الضرورى أن يحفل أحد بذلك لأنه لا خلود على الأرض ولا مهرب لمخلوق من الموت . وعندما عاد بوذا إلى القصر اكتشف أنه لن يعرف لسعادته معنى ما لم يجد حلا لمعضلة الوجود ، وعندئذ حاولت العودة إلى رحم أمى فلم أستطع وأدركت أن رحلتى ستطول وأنه من الأنسب لى أن أكون ديناصورا فكنت .

★ ★ ★

عدت إليك يا أرضى البريئة من ذنبى . على كل من الأنذال الثلاثة أن يعيد النظر فى ماضيه وفى مستقبله . كثير علىّ القول بأنك تحتاجين إلىّ الآن ، فأنا ملك يمينك . عار على أن أعيرك بطردى من جنتك البائسة منذ عشرين عاما حين كنت بحاجة إلى حضنك المجهد .

راح زمان الاقطاع وجاءت ثورة يوليو وانقلاب مايو وحرب أكتوبر وكامب دافيد وحادث المنصة وتخاصم العرب مع مصر ثم تصالحوا معها وأشرقت الشمس من مشارقها وغربت من مغاربها آلاف المرات وتحولت أجساد بشرية ذات رؤوس ولحم ودم وأعصاب من صانعة أحداث إلى عظام تنخر فيها الديدان وأتربة تدوسها الأقدام .. ورغم ذلك كله فوضعك ثابت يا عبد الله لم يتغير ولم يمسسه أحد . قصر عظيم على النيل . رخاء ونعيم وتخمة فى الرزق تأبى أن تفيض أبداً ولو بنفحة ضئيلة على الآخرين من عباد الله . المال مال الله يابن الهوارى . اما أنك لا تعرف هذا واما أنك تعـرفه ولكنك تأبى وتتـكبر . أنا لا أجـرؤ ولا أملك أن أعترض على مشيئة الله فى توزيعه الرزق على عباده .

لكنى أرفض الجبروت والفجور والتلذذ باستلاب حقوق الضعفاء وانتهاك إنسانيتهم . منذ ستة وثلاثين عاما وقبل قيام الثورة بعام واحد ارتكبت جريمتك الوضيعة . مرت كل تلك الأزمنة دون أن تهتز خلجة من ضميرك ودون أن يقترب أحد من هيلك وهيلمانك . ليس هذا عدلا ياعبد الله .

عمرى اليوم ثمانى سنوات . فتحت عينى على اتساعهما لأرقب فى استطلاع مترع بالفزع مشهد الموت لأول مرة فى حياتى . ملاكى الوديع ممددة على الفراش تلفها ملاءة بيضاء من الرأس إلى القدم وتحف بها خمائل من نور . ما معنى أن يموت إنسان ؟ .. سؤال فى الثامنة بلا إجابة . مامعنى أن يموت إنسان ؟ .. سؤال فى الرابعة والأربعين ومازال بلا اجابة . جرس عربة الاسعاف يجلجل فى الطريق . جاءوا يحملون أبى إلى المستشفى بعد أن صرخ ثم سقط على الأرض. كان صدره يؤلمه بشدة . سمعت عمى يقول انها ذبحة صدرية . لست أصدق اننى لن أرى صفية بعد اليوم . يتحدثون عن موعد الدفن . هل يعقل أن يدفنوا ابتسامتها وحنانها وقبلاتها لى تحت الرمال ؟ .. ماذا أفعل حين أريدها ؟ .. انهم يبكون بحرقة شديدة . أتمنى أن أفعل مثلهم لكنى لا أستطيع . آه لو يعرفون أننى أحبها أكثر منهم جميعا . مروان . خطيبها . يكبرنى بثمانى سنوات . يربت على صدرى ويبكى فى صمت غريب كما لو كان مسئولا عن موتها . أشعر أنه صديقى وأخى أكثر من نديم . لماذا لا أستطيع أن أبكى مثله ؟ .. هل يعنى الصمت الحزن هل يعنى الموت البكاء هل يعنى الميلاد الفرحة .. ولماذا استطعت أن أبكى لحظة خروجى من الظلمات إلى النور ؟ .. جرس عربة أخرى يرن

بعنف فى أذنى . يسمونها الثلاجة . وضعوا بها صفية ، وفقد الكنعانيون أرضهم .

– من هو يابنتى .. تكلمى ؟! .

– ... ...

– لا تدفعينى إلى مصارحة أبيك .

– ... ...

– الفرصة مازالت أمامنا لاصلاح الخطأ . تكلمى يهديك ربنا .

– لم اكن أعرف أن هـذا خطـأ يا أمى . لم يقل لى أحد شيئا من قبل .

– أنا أعلم يا حبيبتى ، لكن من هو ؟ .

– لا أستطيع .

– لا تخافى يا صفية .. تكلمى .

– أنا لست خائفة ، ولا فائدة من الكلام . لقد أرحت نفسى وارحتكم .

– ماذا فعلت بروحك ؟

★ ★ ★

« قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شئ قدير » . فى حمام الفندق الكبير خلعت ملابسى وحولت نفسى إلى ثعبان . رقصت عاريا على موسيقا زوربا اليونانى وفتحت الملف الثانى . « تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وَتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من

الحى وترزق من تشاء بغير حساب » . كمال عبد الرحيم . حركاتك وسكناتك منذ عشرين عاما مسجلة فى هذا الملف . أعرف عن حياتك كل ما تعرفه عنها . زوجتك درية بنت البلد الأصيلة التى جعلت منها مسخة زائفة مشوهة الخلاق والخلقة . ابنتك « الدلوعة » كاريمان والصيدلية التى ستفتتحها خلال أيام . ابنك الأنيق العائد من أوروبا حاملا معه بكالوريوس الطب ليجد عيادة فاخرة مجهزة فى انتظاره . ليس هذا عدلاً يا كمال ، وربما لن تسعك أرض مصر وتسعنى فى آن واحد .

★ ★ ★

ينطلق الرصاص .. فليبق كل منكم فى مكانه . فليبق كل فى مكانه .

مثلما صاح عبد الناصر فى ميدان المنشية مؤكدا لقومه على المنصة أنه هو الذى علمهم العزة والكرامة صاح أبو النجا الفوانيسى - ولكن بنبرة أخرى - بعد القبض على جماعة الاخوان المسلمين بتهمة معاداة العزة والكرامة .

- أنا برئ والله .

وصاح الضابط الهمام كمال عبد الرحيم فى المساجين .

- إلى الزنزانة يا أولاد الكلاب يا .

وكان من بينهم أبى .

عندما بلغت الحادية عشرة من عمرى مات الرجل ، أو قيل لنا إنه مات فى المعتقل . صدقناهم جميعا : أمى ومروان وأنا . ثلاث سنوات من المرض والبطالة والاكتئاب تنتهى بالاعتقال فالموت . لم

تعذب أبى هكذا يارب ؟ .. انه رجل طيب ، وكلنا نحبه . أما كان يكفيه موت صفية ؟ .

حضر الدكتور منير حاملا إلينا معونة الاخوان الشهرية . بكت أمي تأثرا . قال منير :

– أنتم فى رعاية الله ورعايتنا حتى يصير محمود رجلا .

منذ ترك أبى الخدمة فى دائرة عبد الله بك الهوارى لم يجد للرزق موردا . قهره اليأس وتهالكت منه النفس والعافية بعد أن دفنت صفية فى باطن الأرض وأهيل فوقها التراب ، تولاه الدكتور منير بالرعاية الطبية لوجه الله وحده ، ثم ألحقه بعمل صورى فى جماعة الإخوان ليبرر له المعونة الشـــهرية . لم تغب تلك الحيلة عن فطنة أبى – فيما أظن – لكنه قبلها صاغرا والا متنا جوعا ، وعندما علمت أن أبى قد مات بكيت على صفية . لم يبق لى الا أمى وابن عمى ، أما نديم فكان دائما بعيدا عنى وعنا جميعا ، دائم القرب من نفسه . رغم هذا لم اشعر نحوه يوما بالكراهية وانما كنت أرجو الله من قلبى أن يقرب يوما بيننا . وأسأل أمى عن بقية الأسرة فأقول لها :

– ما معنى عزلتنا عن الأهل والأقارب بعد وفاة أبى ؟

فلا تجيبنى وانما تهيم فى تاريخ مضى . ترويه بحب تتوق به إلى طفولتها . تقول ان أباها كان شيخ طريقة البراهمة . كانت عمامته خضراء . تقول الجريدة ان العبرانيين فى سبيلهم إلى انتاج القنبلة الذرية ان لم يكونوا قد انتهوا من انتاجها . تقول ان جدها الأكبر هو مقرئ السيدة زينب بنت الرسول . مازال ضريحه كائنا بجوار مقامها فى القاهرة شاهدا على ذلك . أصله تركى – وقد ضايقنى هذا – أما

الأحفاد فسكندريون وان تمركزت أعمالهم فى مرسى مطروح . يقول بن جوريون ان مقام قومه من النيل للفرات . تحدثنى عن أمها فتقول انها ابنة شيخ الطريقة الرفاعية الذى كان يرتدى عمامة سوداء . هناك فرق بين العمامة الخضراء والعمامة السوداء وإسرائيل تؤمن بالتخصص . غالبية هذا الفرع من الأسرة كانوا من المحامين والقضاة . عندما يريد جدى مداعبة جدتى يضع حية حول رقبتها وحية أخرى حول وسطها فيختلط صراخها بضحكه مثلما حدث لحظة مولدى تماما . . ما أجمل رواياتك يا أمى . لو حكيتها « لفينيتا فلمان » لما صدقتنى على الاطلاق .

تنقب أمى فى حاضرها ولا تجد لحظة مسرة واحدة فتنسحب إلى الماضى وتسحبنى معها . عندما تحدثت عن أبى قالت باحترام شديد انه ابن فلاح من « تلبنت القيصر » – احدى قرى الغربية – وان أباها زوجها له لمجرد أنه كان صديقا حميما لأبيه . أما خالها فقد كان عازف عود محترفا يعود مخمورا فى المساء إلى بيته فى كوم الدكة فتتساقط من جيبه الجنيهات الذهبية ولا يفكر فى الانحناء لجمعها لتكون من نصيب من ظل يقظانا من الأولاد حتى ساعة متأخرة من الليل . كان يمتلك العديد من العقارات ولكنه مات فقيرا بائسا تحت حوافر حصان يجر عربة « حنطور » . تستهوينى دائما معرفة نهايات الناس والأشياء مقارنة ببداياتها لأسبح فى تأملاتى وأغوص وأفكر وأكتب وأنسى وأتذكر . حتى الآن لم أعرف الا بدايتى . يزعجنى – رغم منحة الكشف الالهية – أننى مدرك لاستحالة تجاوز هذه المعرفة ولو بزمن قدره ثانية واحدة .

تزورنا أم تيريز من حين إلى آخر . صـديقة أمى القريبة من

قلبها . تخفف عنها آلام الوحدة وغدر الاكتئاب . البيتان متجاوران فى التصاق حميم . باخوم افندى – توأم أبى الروحى – يقسم أنه لو عاش سيزوجنى من ابنته تيريز . ونضحك جميعا فيما عدا ابن أخيه سوريال الذى لا يعجبه هذا الكلام .

وأعيد السؤال عن سر انفصالها عن الأهل وتقوقعها بنا منذ أن رحل أبى فتقول انها لا تنتظر شيئا من أحد ولا تريد أن يعتقد أحد أنها تنتظر منه شيئا ، ثم تدلل على صدق حدسها بأن أحدا من هؤلاء الأقارب – خاصة الموسرين منهم – لم يفكر فى زيارتنا لتقديم عون كريم لنا ، بل انهم أصبحوا يخشون هذه الزيارة ويتجنبونها ما وسعهم ذلك .. غير أنها لم تعلن القطيعة ، وانما مارستها من جانبها فى صمت حكيم .

★ ★ ★

مذكراتى جمر ورماد . مكتوبة في حينها . قاصية دانية . معدلة بعد حين من الزمان . منقحة بعد حين آخر . كلماتى فى الثامنة كتبتها فى الثامنة ثم أضفت اليها وعدلت بعد العودة ، وكذلك الحال فى أى سنة من سنواتى الحرون الأربع والأربعين . كثيرة هى الأحداث التى لم أعرف حقيقتها الا بعد الخروج . عندما جائتنى أمى إلى المهجر فى مطلع عام ١٩٧١ روت لى ما لم تكن تعرفه هى الأخرى قبل خروجى من مصر ، فعلمت كيف مات أبى وكيف ماتت صفية كما علمت أن نجلاء قد ضاعت منى إلى الأبد .

مذكراتى زمان وبداية وتاريخ ونهاية وموت وآخرة وميلاد وقوة وأشياء أخرى قد لا تعنى شيئا لمن يقرؤها .. أو ربما كانت مجرد

دفقات سريعة لأحزان رجل سعيد يهيم به جمل فى قلب الصحراء وهذا هو الأرجح إذ يتناغم اهتزاز جسدى بين سنميه مع إيقاع إحساسى بغموض المصير وصمت الجبال الرواسى وصفير الرياح ، ويبعث وجه أخى الجمل فى كيانى سكينة لا تعدلها على هذه الأرض سكينة . عيناه . فمه . أنفه . صمته . مشيته .الأفكار التى تشع من عينيه فى عقلى لتنفذ إلى قلبى فى يسر . ليتنى كنت مثلك . سر بى يا أخى إلى هناك ولا تكل فإنى مشتاق إلى الصفاء ، وثمة أوتار ينبغى أن أكف عن العزف عليها فهاهى السنوات قد انفلتت منى دون أن أدرى . جنيت الكثير وضاع منى الكثير فكانت حصيلتى صفرا مكعبا لا يعلى عليه . تنحنح الجمل . نزلت . نظر إلىّ متسائلا فى شموخ فلم أستطع إجابته. انصرف عنى معتذرا وتركنى وحيدا . فى المساء حضرنى كائن شفاف ذو جناحين . رحبت به مستسلما لغموض نهايتى معه لكنه قال لى كلاما جميلا فغمرتنى السعادة وتسامت روحى إلى العلا البعيد ثم تركنى هو الآخر دون أن أدرك كنه البكاء أو الضحكات التى سمعتها مختلطة به لحظة خروجى إلى الحياة .

كانت سعادتى بالعودة لا توصف ولا تدرك ولا تقال فى كلمات . أستعيد عمرى وأستعوضه بالعودة إلى شوارعك وأناسك وبيوتك وكنائسك ومساجدك يا وطنى العربى المصرى . بروحى أنت والسمع والبصر . ترتاح أذناى من طول سماع اللغات الغريبة عن دمى . ما عدت بضمير ينوى الانتقام ، وإنما عدت كى أعطى – بكل ما أختزن من ينابيع الحب – ما لم أستطع أن آخذه منك وما لم تتمكن من إعطائه إياى . لا يستطيع أحدنا ولا يملك أن يلوم الآخر على ما حدث

لى ولأرحامى فى ثلاثة عهود متعاقبة . يا وطنى . إنى أتوجه إليك برجاء غير مشروط . تنساني يمينى لو فكرت بعقد صفقة معك وأنا الفرد الزائل وأنت الجمع الباقى . مطلبى عادل فلا تظلمنى مرة ثانية . سنوات العمر المتبقية لا تسمح بوقوع ظلم جديد . أنا العاشق الجريح أعطيك هذه السنوات بأكملها وحقق لى رجائى وليدفع الثمن كل من أخرجنى من أرضك يوم ٣١ ديسمبر ١٩٦٧ ، وكل من أخرجنى منها أثناء وجودى بها قبل هذا التاريخ .

ياه .. كل تلك الأعوام بعيدا عن نيلك وشمسك وغبارك ولهجة أبنائك المرحة الساخرة حتى فى أتعس الظروف ، لا أكاد أصدق أننى أنزل الآن الدرجة الأخيرة من سلم الطائرة الرابضة فوق مطار القاهرة الدولى . لو طلب منى أن أزحف على بطنى حتى أغادر المطار وأرى شوارع القاهرة لما تمنعت .. ولكن ..

– أهلا بك فى وطنك يا محمود بك .. أهلا . أهلا . أهلا ..

وصالة كبار الزوار . ومدير البنك المركزى . ووكيل وزارة الخزانة . ووفد ممن يسمون أنفسهم برجال الأعمال . وصحافيون وآلات تصوير وتسجيل ليثبت الجميع بجرائدهم ومجلاتهم أننى وصلت إلى القاهرة لأول مرة منذ عشرين عاما .

يا مهندس الكون ما أعظمك فيما تقدر وتفعل وتغير الأحوال وتبدلها من نقيض إلى نقيض .

– مروان حبيبى .

– شعرك شاب يا ولد .

- وأنت ما زلت رسميا فى كل شئ .. لم تتغير .

- جسامة المسئولية يا محمود .

- ألا تنوى أن تقبض على ؟

- أنا لا أصدق أننى أستقبلك اليوم .

- يجب أن تصدق وبسرعة ، فأمامنا عمل كبير .

- أوله أن تتسلم منى خمسمائة خطاب وصلتنى منك لتسلمنى فى المقابل عشرين عاما من عمرى أنفقتها فى قراءتهم .

- ألم تعرف بعد أي خبر عن نجلاء ؟

ما أروعك يا شوارع القاهـرة . ضـاعت منى نجـلاء . لا تسرع يا شوقى أرجوك . دعنى أحزن فى سلام . أريد أن أفرح بحزنى فإنى أقدس هذه الفرحة . ما أروعك يا شوارع القاهرة .

- لا تسرع يا شوقى .

يذهلنى أمر تلك الإعلانات التى تحتل شوارعك بكثافة مزعجـة . « ليسيكو للأدوات الصحية » .. « توبس للغلاف الواقى » .. « لحوم الطاهرة » .. « الأمل لتوظيف الأموال » .. ما الذى حدث بعد خروجى ؟ « دواجن كنتاكى » .. « مسرحية خذ الفلوس واجرى » .. هل تحولتم إلى مجرد أكلة ومجامعين وجالسين إلى دورات المياه وجامعى أموال بلا جهد أو عرق ؟ ..

- أسرع يا شوقى .

سوف أبحث عنك يا نجلاء فى طول مصر وعرضها ، ولكن بعد

أن أنجز مهمتى المحددة . حبست عواطفى عشرين عاما فى قمقم صنعته من صبرى ودمى . لن أظلمك أكثر مما ظلمت نفسى وظلمتك لو أرجأت البحث عن رائحتك البرية شهرا أو شهرين ، فسوف يظل ليلى طويلا يطوف فى بحر الزمان حتى يؤون الأوان .

أتأمل وجه شوقى العجيب ابن حارتنا العجيبة . يتعامل معى من الخارج بحذر وتردد لأنه لا يستطيع أن يتصور أن أكون مخلوقا آخر غير محمود الذى كان يسبح معه ويصطاد السمك منذ ثلاثين عاما . يتجاوز داخله خارجه أحيانا وتتملكه الحيرة فيتخلى عن طقوس الخوف المسـمى بالاحترام ويخـاطبنى بعفوية ومودة . أحاول أن أبث فى قلبه ما أستطيع من طمأنينة حتى يبقى هلى تلقائيته معى ، لكن خارجه يحتوى داخله غير مصدق أن مودته تسعدنى وبساطته تهمنى وعفويته تعوزنى . يضحكنى تذبذبه بين الداخل والخارج فأنتشله من حيرته لأعيد إليه توازنه .

– ماذا فعلت مع تيريز وماذا فعلت بك ؟

– إنها امرأة بألف رجل .

– يا سلام .

– أى والله يا أخى .

يشعر أنه تجاوز حدوده فى رفع الكلفة مع مليونير كان يوما صديقه ، فيحمر وجهه وتتصاعد الدماء إلى أذنيه .

– ألم تقل لك متى تعود إلى القاهرة ؟

– قالت إنها ستبقى بالمنصورة لفترة غير معلومة ، ولهذا فإنها تعتذر عن عدم استقبالك .

« تيريز .. إنى أفهم معنى كبريائك » .

– لماذا يا شوقى ؟

ينتهز الفرصة لتصحيح خطئه فيجيب بسرعة متراجعا إلى حدوده الوهمية غافلا عن الامى .

– لا أعرف يا سعادة البيه .

فى عينيه صبر وفى ابتسامته تسليم جميل وبصدره اتساع غير محدود . على تجاعيد وجهه تتشابك سنوات خبرته بالانجليز والباشوات وضباط الجيش ورجال الأعمال الجدد قبل أن أختاره من منفاى ليعمل مع تيريز فى خدمتى . بديهته دائمة الحضور . لم يفشل فى التعامل مع أى ممن قاد لهم سيارته الخاصة من مختلفى الجلود والمشارب ، لكنه كان دائم العشق للتغيير من أجل التغيير . يحترم العمل قدر احترامه لمزاجه الخاص . حدود هذا المزاج لا تتعدى سيجارتين أو ثلاثا من الحشيش مساء كل يوم ليتحرر – كما يقول – من تعب اليوم قبل أن يضاجع زوجته .

– ألابد من هذه المضاجعة يوميا ؟

– يتعب جسدى ويختل تفكيرى لو تغير هذا النظام .

– ألا تتسلى بشئ آخر ؟

– أم كلثوم ومباريات كرة القدم والمسلسلات التليفزيونية .

– وماذا عن الكتب ؟

– صل على النبى يارجل .

أضحك والفرحة تغمرنى لأنى أضحك . كم أحبك يا هذا البلد المنوم . أحمد الله أننى عدت إليك سالما .

★★★

الأدق فى تاريخ خروجى من مصر أنه أول يناير عام ١٩٦٨ ، لأن الوقت كان قد تجاوز منتصف الليلة الأخيرة من عام النكسة الخبيث بعدة ساعات ، حين حملت حقيبتى اليتيمة وقلبى النازف وتسللت هاربا من مصر . لكنه يحلو لى دائما أن أكتب هذا التاريخ على أنه ٣١ ديسمبر ١٩٦٧ . وسوف يحلو لى فيما بعد أن أكتب تاريخا يماثله ولكن بعد عشرين عاما من الزمان ، فهذان التاريخان هما محور عمرى الذى يبدأ بيوم الخروج وينتهى بيوم العودة ... ولا تدور سنوات حياتى الباقية والماضية إلا من حوله .

اليوم قد انقضت أشـهر سبعة على هزيمتنا المريرة أمام إسرائيل الجونسونية الأمريكية . اليوم أيضا أدفع ثمن هزيمتى - الأكثر مرارة - أمام عثمان مرعى بأن أترك روحى فى مكان وأروح بجسدى إلى مكان آخر دون أن أدرى متى يجئ الوقت لجمع شملهما حتى أكون .

ينبغى على هذا المخلوق أن يكشف لى عن السر الحقيقى فى كراهيته السـوداء لى ورغبته الأصيلة فى تدمير مستقبلى وتخريب حياتى . فما أنا وهو الا عابرا سبيل فى متاهة لا نهائية بزمانها ومكانها ، وما أنا وهو الا مخـلوقان ضعيفان صنعا معا من طين مقدس ، كان من الممكن الا تجمع حبيباته بيننا حين تناكحت أزمنتنا على طين جمرى

تحت وابل من المطر . ولست أشك لحظة فى أن خالقنا - حين خلقنا - كان يرجو لنا الخير ويأمل فينا أن نرجوه لأنفسنا . الكراهية إذن هى اختيار ذاتى من عثمان لا شأن لخالقه به ، ولا يمكن أن يكون رفضى للانصياع إلى رغبته غير المشروعة هو السر الوحيد الذى يكمن خلف تلك الكراهية . لابد أن هناك أسرارا أخرى رآها فى عينى أو فى تقاطيع وجهى أو نبرات صوتى أو شكل خطواتى أو طول قامتى أو ربما فى اختيار ألفاظى . ما أبشع أن يكره إنسان إنسانا آخر . .

لو كان يعرف أن مؤامرته ستحولنى بعد عشرين عاما إلى ما صرت إليه لما فكر لحظة فى تدبيرها ، ولو قلت انه كان السبب فى نعمتى لأغفلت مروان حقه . لولا مروان لما استطعت الهرب . غامر ابن عمى بوظيفته الحساسة - التى يشغلها منذ أحد عشر عاما - وهو الموظف الحصيف الملتزم ، فدبر لى وسيلة جهنمية لمغادرة البلاد . أسكت صوت ضميره وقهر خوفه على مقعده لأنه كان واثقا من براءتى ساخطا على نذالة خصمى .. وقبل أن تقلع الطائرة من المطار كانت أمى فى دموعى وكذلك كانت نجلاء .. وكان وطنى هالة من الأحلام حول جبين القمر .

قال لى مروان متعجلا فى همس اللصوص :

- الحمد لله . مع السلامة يا محمود . ربنا معك .

- أمى وديعة بين يديك يا مروان . حافظ عليها .

- اتكل أنت على الله ولا تنع هما .

يتحدث نديم بالليل والنهار عن استعداداته الجارية للعمل بدولة

عربية ، لا أستطيع الاعتماد عليه فى شئ . هزمه الفقر وأدركه فى مقتل فأصابه بعقدة الخوف الأبدى منه ، وظنى كبير بأنه لن يبرأ من اصابته مهما أوسع الله عليه فى الرزق . لو كان صديقا لى لأطلعته على بنود المصالحة السرية التى نجحت فى اقناع الفقر بالتوقيع عليها . كنت أرى الخوف فى عيون الجميع وباعتقادى أننى فى مأمن من غدره دون أن أدرى لذلك سببا . رأيته فى تزاحمهم على الرزق وفى قيادتهم للسيارات وفاتنى أن آراه فى عينى أمى . رأيته فى احتقارهم للنظام وتهربهم من القانون بمختلف الحيل والأفانين ، مثلما رأيته فى عينى أخى . رأيته فى صراعهم على السلطة ونفاقهم للرؤساء والحكام ، وفاتنى أن آراه فى عينى .. لهذا أصبح مروان أخى وصديقى وأجدر الناس برعاية أمى التى انتابها الهلع من وقع المفاجأة .

– ونجلاء يا مروان .. نجلاء لم تعرف شيئا عما حدث . طمئنها دائما حتى تستبين الأمور . سأكتب لك .

– لا تقلق . سأخبرها بالحقيقة وسوف نلتمس لك العذر جميعا حتى يقضى الله بأمره .

– مع السلامة يا مروان .

– سوف نلتقى قريبا باذن الله .. فى رعاية الله يا محمود .

آخر ما وقعت عليه عيناى قبل دخولى فى قلب الطائرة لافتة عريضة بالمطار كتب عليها الشعار السائد « خسرنا معركة ولكننا لم نخسر الحرب » . أردت أن أصدق الشعار ، لكن انكسار نفسى جعلنى أذكر المثل العربى الشائع « قصر ذيل يا أزعر » . وتهالكت على مقعدى

طائرا بجسدى إلى المجهول . رأس أسد فى جسد فأر والروح باقية فى مصر . بالطائرة حيتان وديناصورات وأفاع متجهة إلي أوروبا وأمريكا . لم تلمح عيناى المتورمتان حملا واحدا . عندما احتك ذيلى بمقعد الطائرة تأكدت من هويتى فازداد انكماشى ، وعندما ربطت الحزام على وسطى تلاشيت فلم أجد نفسى وصار مقعدى خاليا فوضع عليه جارى باقة صغيرة من الورد كان يحملها عند صعوده .

★★★

القــرار :

لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمل . لو مت قبل هذا فلا تلقوا بجثتى فى باطن الأرض بل القوا بها فى عرض البحر . أفضل أن تأكلنى الأسماك الحرة على أن تأكلنى ديدان أرض تدب فوقها أقدام عبد يدعى عثمان مرعى . ثلاثمائة مليون دولار أمريكى والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا . كل مائة مليون برأس عبد . منتبه أنا قبل أن أموت ، ولن يفيد انتباهى بشئ لو مت قبلهم . أعلم أن فديتى ثمن بخس لا يقدم ولا يؤخر من تاريخ بنى قومى ولا يصلح ما أفسده العبيد عبر أجيال ثلاثة . لكنه يكفينى ويرضينى أن أقدم مالى رمزا أفتدى به شقيقتى وأبى ونجلاء ولطفى وسوريال . أيقونة أضعها فى خزانة البنك المركزى ولو ليتفرج عليها كل من يتردد لحظة فى المساهمة برمز آخر لاصلاح ما فسد . صدقونى أيها الناس الطيبون . أنتم الكثرة وهم القلة . مائة مليون على شرف عثمان مرعى . لكم الغلبة لو اتفقتم عـلى رأى . مائة مليون أخرى على شهامة كمال عبد الرحيم . العرب أشقاؤكم وسندكم الحقيقى الوحيد . مائة مليون

ثالثة على كرامة عبد الله الهوارى وينتصر الحلم فتجف الدماء على أرض لبنان الجميلة والتقى هناك بنجلاء ويعيش الفلسطينيون داخل جدران من الطوب والأسمنت والخشب ، لا من القماش والأسلاك الشائكة ، فتقام المجارى بأرض أبى قير ، وتزول رائحتها العفنة . ويا أيها الناس الطيبون ستفرضون السلام يومئذ على عصابات العبرانيين وخدم الهكسوس . سوف تدعون لى من بعد ذلك بطول البقاء وتنعمون بالعمل والرخاء والحب وتمتنعون عن الكراهية . « تصفيق حاد » .

★★★

احتفالا بخطوبتنا دعانا سوريال لتناول الشاى بمنزله . هنيئا لك يا أخى بتيريز فأنت ابن عمها والأولى بقلبها . منذ ثلاثة عشر عاما كنت تضيق بقول أبيها باخوم - قدس الله روحه - أنه سيزوجها لى . لابد أنك فهمت ما بيننا من عشرة ومودة . تيريز توأم روحى وشبيهة نجلاء فى نصاعة جوهرها ودقة ملامح وجهها . ثق أننى أحبك يا أخى وأبارك زواجك برفيقة طفولتى وصباى . كل ما يهمنى أن تمنحها السعادة التى تستحقها ، وإذا كنت تعرف دينك جيدا - كما أعرفه - فلن تعجز يوما عن اسعادها .

استقبلتنا تيريز بحب حنون . ما أن مضت دقائق معدودة حتى جاء استدعاء مفاجئ لسوريال . عجزت عن التنبؤ بوقوع النكسة بعد عشرة أيام مقبلة . ارتدى زيه العسكرى وألقى علينا بكم هائل من الاعتذارات . بقينا مع زوجته لمشاركتها صعوبة اللحظة . رأيت المسيح على وجهها حين أشع من عينيها حزن نبيل . أكلنا ثمار الموز واختلسنا بعض القبلات لحظة أن خلت بنا غرفة الاستقبال . قبلات الحب الأولى

مذاقها عذب . تظل باقية بشهدها وعسلها ورحيقها على الشفاة منطبعة برجفتها وطزاجتها فى قلب الذاكرة محفورة برقتها وعنفها على جدران العمر لاتمحوها الأيام والسنوات . تركتنا تيريز نستمتع بخلوتنا بعد أن رمقتنا بنظرة فاهمة متعاطفة . عند انصرافنا لمحت فى عينيها نظرة حزن كثيف مترعة بالخوف من المجهول « ولا يحيطون بشئ من علمه الا بما شاء » وكانت دقات ساعة الحائط تضرب فى قلبى معلنة العاشرة غير أننى عندما دققت فيها النظر رأيت عقرب الثوانى يدور فى عكس اتجاهه الطبيعى فانتابنى شك عظيم فى أننى لست أحمل فى روحى بذرة كشف واعتقدت أن هذا من أثر القبلات ولا شئ غيرها ، لكنى لم أر سوريال مرة ثانية بعد هذه الليلة وانما رأيت بومة شمطاء تقترب فى الليل من نفسى وتراودها كى تدخل .

فى طريق عودتنا رحت أحكى لنجلاء عن مغامراتى الطائشة بالاقامة فى شقة مفروشة وعن عفاريت مكاوى وآرائه فى السياسة والمرأة والموت . عندما أغلق باب غرفتى بعد انصرافه لآخر مرة قررت ألا أفتح هذا الباب لرجاء مرة أخرى . فى تلك الليلة جلست وحيدا بالشرفة أرقب ضوءا خافتا ينبعث من زجاج نافذة مغلقة فى بناية عالية بعيدة عن موقعى . لست أدرى كيف تسرب هذا الضوء الهادئ البعيد إلى أدق خلجات نفسى يداعبها ويعزف فى حنان على أوتارها الساكنة ، اذ قررت أن أرتبط فورا بنجلاء . قالت لى بطفولة مبهرة :

– لولا هذا الضوء المنبعث من مصباح خلف نافذة بعيدة لما تقدمت إذن لخطوبتى ؟

فقال لها زرادشت :

– كن على حذر أيها الإنسان . ماذا يقول الليل فى غروره . لقد نمت ثم أفقت من حلم عميق . ان العالم أعمق من أحزانه وأفراحه . لكن الأفراح تطلب الأبدية العميقة . فى الليل فكرت كثيرا فى عينى سوريال الحزينتين حين ودعنا . للفراق رائحة تنبئ عنه ونظرة تشى فى غموض بقدومه وأشجان تعزف على القلب لحنا حزينا . فكرت أيضا فى لطفى شقيق مروان الذى جند منذ عام . سيأتى زمان على دول متحضرة يحظر فيه التجنيد الاجبارى ويكتفى فيه بالتطوع ثم يأتى زمان آخر – ولو فى الحلم – يلغى فيه التطـوع أيضـا . لم أستطع النوم . تناولت كتابا عن حياة الملك فاروق . مازلت أذكر هذا الوجه الألبانى المصرى حين كنت أراه فى طفولتى يمر بعربته ذات اللونين الأسود والأحمر أمام منزلنا القديم فى طريقه إلى مسجد أبى العباس المرسى لصلاة الجمعة قبل أن ننتقل إلى أبى قير العفنة .

قال لى مدير صيانة القطار الملكى إنه لاحظ أكثر من مرة أن الملك كان يلغى فجأة مراسم الاستقبال الرسمى عند وصول القطار إلى مدخل قصر المنتزه قادما من القاهرة . ثم يتسلل إلى حديقة القصر الشاسعة . لكن الرجل لم يجرؤ على الاستفسار من أحد عن تلك الملاحظة . إلى أن واتته الفرصة مرة ليراقب الملك عن بعد من داخل احدى عربات القطار اذ رآه بعينيه يتسلل من بين الأشجار ثم ينظر من خلفه وعن يمينه ويساره فى حذر شديد حتى يقترب من خلف « عم محمد » البستانى العجوز الذى كان منحنيا يقلم النجيل ويفاجئه بدفع يمناه فى منتصف مؤخرته . ينتفض العجوز هلعا ليجد فاروقا من خلفه يضحك مقهقها فى غمرة من السعادة وهو يجرى بعيدا عنه . يجرى

وراءه « عم محمد » - الذى حمله بين يديه عندما كان طفلا - صائحا فى غضب وهو يطارده :

- يا ملك يا عيّل يابن الكلب .. لوكنت رجلا قف مكانك .

ولكن الملك يبتعد عن متناول يد العجوز ثم يختفى متجها إلى قصره . أما عبد الناصر فقد كان يفضل الذهاب لصلاة الجمعة فى عربة مكشوفة للاستمتاع بهتافات الجماهير وصيحاتهم الهادرة بعد أن تخلص من محمد نجيب :

- بالروح . بالدم . نفديك يا جمال .

● اضافة حديثة لمذكرات اليوم :

- بالروح . بالدم . نفديك يا سادات .

● اضافة أحدث لمذكرات نفس اليوم :

- بالروح . بالدم . نفديك يا مبارك .

● متابعة للمذكرات القديمة :

.. وأعتقد أن هذا الهتاف لا يمت إلى الصدق بصلة أصيلة ، إذ أننى أتصور أن هذه الجموع الحاشدة لن يكون بامكانها فداء أحد هؤلاء الرؤساء عندما يأتى أجله بطريقة أو بأخرى ، أما عالمى الخاص مع المرأة وعلاقاتى الغامضة بها فلن أكشف عنهما فى هذه الأوراق لأن أحدا لن يصدقنى على الاطلاق . غير أن هذا لايهمنى فى شئ لأننى أختلف كثيرا عن سائر الرجال الذين لا يرون فى المرأة الا ثقبا يمتص فائضهم الحيوانى الكريه .

أحبك يا نجلاء . سوف أكرس حياتى لاسعادك فأجعل من أيامنا أنهارا من الخمر الصافية تداعبها رياح الأمل لتبوح بعطرها ونتيه

بسحرها . وأعلم أيها السائل عن الشئ أن الحياة فى أوطاننا أمر عجيب لو كتب بالابر على آماق البصر لكان عبرة لمن اعتبر ومن لم ينظر فى العواقب فما الدهر له بصاحب وماذا بيدى أن أفعله حتى أتجنب شرك ياعثمان ؟ .

قالت نجلاء :

– ليس أمامك سوى البحث عن وظيفة فى مكان آخر . أعني أن تغير العتبة .

تقول خبرتى المحدودة بالحياة أن الاحجام يكون أحيانا أقوى من الاقدام ، ورغم أنه مازال خافيا عن عينى الكثير مما ينبغى ان تراه وعن أذنى أن تسمعه وعن عقلى أن يعيه ، فاننى لاحظت على مدى ما يقرب من ربع قرن من زمانى أن هناك أشياء كثيرة لا بداية لها ولا نهاية ، وأخرى قد انتهت قبل أن تبدأ ، ولهذا فقد مارست العشوائية فيما مضى من أمور قد تبدو مصيرية . قوة خفية كانت تستبد دوما بتفكيرى المنظم وتخطيطى المتقن وعملى الدؤوب لتحقيق ما أريد . تنذرنى فى تحد مستفز بأن هناك شيئا غامضا مجهولا لم أضعه فى حسبانى سوف يقلب كل مخططاتى رأسا على عقب ليجعلنى أعيش حينا طويلا كعشوائى تحت التدريب . أستخدم عقلى تارة وألوذ بغريزتى تارة أخرى . أفعل أى شئ فى أى مناسبة مع أى مخلوق وفى أى وقت . لكنى لم أغفل يوما حق غيرى فى أن يفعل مايشاء بنفس الحرية .. وهكذا خطبت نجلاء وتبادلنا تسليم قلبينا فى طمأنينة للقدر لا تعرف الخوف أو الحذر ، وكما أن تحدى القدر شئ مستحيل فان التنبؤ به أكثر

استحالة .. وما أتعس من يحرمه غباؤه من الطمأنينة المقدسة التى لا تشترى بملايين الدولارات .

★★★

أؤكد لكل من يقرأ مذكراتى أن اليوم الأخير من ديسمبر عام ١٩٨٧ لا يعنى اليوم بذاته ، وانما قد يعنى الساعات القليلة التى سبقته ، أو الأشهر القليلة التى أعقبته . إنه رمز لوهج لحظة العودة . كل ما يحدث فيه أو بعده سوف يندرج تحت تاريخه . كل فكرة وكل واردة خطرت ببالى منذ وطئت قدماى أرض مطار القاهرة سوف أذكرها تحت هذا التاريخ .. آه . لقد انتظرته طويلا .

★★★

تمتلك الآن عشر شركات يا عثمان مثلما تمتلك الصفاقة اللازمة لتسميتها « مجموعة شركات الأمل للاستثمار وتوظيف الأموال » ، وتمتلك الجرأة على اصدار تصريحات سياسية من موقعك الاقتصادي تؤيد فيها الانتفاضة الفلسطينية وتشجب حرب الخليج وتقول « ارفعوا أيديكم عن لبنان » وتستنكر اغتيال « أبو جهاد » الفلسطينى على أيدى الاستخبارات الإسرائيلية . فاعلم يا مروان أن هذا الرجل هو قاتل أخيك فى حرب الخامس من يونيه . لم يقتله ابن الهوارى أو ابن عبد الرحيم وحدهما ، وانما ساهم معهما هذا الخنزير بجدارة فى تمزيق جسد لطفى رمضان الفوانيسى بقنابل النابالم الصهيونية الحارقة .

– لم نعثر لها على أثر منذ وفاة أبيها .

- عجيب أن أسمع منـك هـذا وأنت على رأس جهـاز خطير لا تخفى عنه خافية .

- صدقنى يا محمود . حتى بقية أهلها لا يعرفون عن مصيرها شـيئا .

- هل ماتت نجلاء يا مروان ؟

- احتمال وارد .

- ولكنى سأجدها ان شاء الله .

- لم طلبتنى فى هذا الوقت الغريب ؟

- لنتفق بشأن عثمان مرعى .

- لقد أحرجتنى أمام رجال الحزب . هل نسيت وعدك المكتوب فى رسالتك الخطية الأخيرة ؟

- لو ذهبت اليوم إلى البنك لوجدت وديعة باسمى قيمتها مائة مليون دولار .

كان من الطبيعى ألا يصدقنى ..

- ما أظنك قادرا بعد هذا العمر على العودة إلى مزاحك القديم .

- لست أمزح ، فلقـد أجلت حقى فى المزاح إلى أجل غير مسمى ، أما المبلغ فقد أودعته بالفعل .

فتح الموظف الكبير فمه عن آخره متسائلا بنبرة ذاهلة .

- ومن أين لك بهذا الرقم المخيف ؟

- تلك قضية أخرى .

– اذن فقد نفذت وعدك حقيقة .. رغم أن عثمان مرعى جالس الآن إلى مكتبه بالقاهرة .

– هذا لكى أثبت لك – أنت بصفة خاصة – حسن نيتى .

– ربما كنت تفضل الدفع مقدما لا أكثر .

– سمه ما شئت ، لكنى لست أعقد صفقة مع بلدى .

صمت مروان طويلا ثم قال :

– رغم ايمانى بموقفك وتعاطفى الشديد معك ضد هذا الجبان ، الا أن فكرة اخراجه عنوة من البلد ليست باليسر الذى تتصوره ، فضلا عن كونها غير منطقية على الاطلاق .

أيها الساذج لست بحاجة إلى ايمانك أو تعاطفك ، فهى قضيتك مثلما هى قضيتى والا ما كانت العودة . وماذا لو علمت بما حدث لابنة عمك وحبيبتك صفية ؟ .. سأكون رفيقا بحالك فأنا أعلم الناس بطبيعة قلبك وحسن نواياك رغم شراسة طبيعة عملك الكريه . لن ألومك يوما على ولائك لعملك تحت ظل أى نظام كائن ، وانما أخشى أن يفقدك ولاؤك للنظام ولاءك لقومك . لقد عشت عشرين عاما فى حياد تجاه النظام الذي عملت فى ظله . لم أنتم له ولم أرفضه . كان انتمائى لعملى فحسب ، ولهذا السبب وحده أصبحت أمتلك الملايين وعشرات الملايين . سأكون رفيقا بحالك . سأخفى عنك ما أكاد أجزم أنك لا تعرفه .. ولكن لو لزم الأمر فسوف أفجعك بمأساتك . لن أتردد لو اضطررتنى إلى ذلك .

– مروان .. لا تمارس معى بيروقراطيتك المزعجة .

– المسألة بعيدة تماما عن البيروقراطية . ان البلد يحكمه الآن قانون .

فى المهجر كانت روحى هنا . تبعث إلى بالحكايات والأحداث والنوادر . لم تخف عنى خافية . أنا أعرف كل ما عرفه المصريون خلال تلك الأعوام العشرين . قلت لمروان :

– لو أنكم أردتم اخراجه فلسوف تخرجونه .

– انك تحملنى مالا طاقة لى به . لو خالف القانون يسجن ، ولو قتل يعدم ، أما اخراجه هكذا فأنا لا أفهم كيف يكون . انك مجنون حقيقى .

– فكيف أخرجتنى منذ عشرين عاما رغم أنك لم تكن قد بلغت بعد هذه المكانة الرسمية المرموقة ؟

– أسمع يا محمود . نحن نراقب هذا الرجل ضمن مجموعة من الانفتاحيين الجدد . وأصارحك بأنه رجل مشبوه لكنه شديد الحيطة والحذر ، ورغم ذلك فانه لابد أن يقع يوما فى قبضة القانون .

– وماذا بعد أن يقع ؟

– يحاسب وينال جزاءه .

– لكنه سيتناول طعاما مصريا بالسجن .

قال بدهشة شديدة .

– ما كنت اتصور أنك قادر على الكراهية إلى هذا الحد .

فأر سفينة نتن . يسرق طعام الثوار فى الخمسينيات ثم طعام الاشتراكيين فى الستينيات واذ به يصير انفتاحيا فى السبعينيات ، ثم

يستنكر ابن عمى أن اكرهه فيفقد هذا الشعب الفرعونى المسيحى العربى الإسلامى نصف وعيه ويترك الحبل على غاربه للناهبين والسارقين ولا يفعل شيئا آخر غير أن يتندر عليهم بالنكتة .

اعلم يا مروان أننى لست أكره عثمان وانما أنظر إليه باعتباره ورما خبيثا ينبغى استئصاله من أجسادنا جميعا . راحت نجلاء فأين أنت يا صفية ؟ .. كنت تتغنى بطهرها وبراءتها يا مروان وتكتب الشعر فى نقاء سريرتها رافضا لها أن تنتمى إلى عالم البشر إذ كنت تظنها ملاكا . هل علمت بما حدث فتكتمت حرصا على مقعدك الدائرى اللفاف أم أنك مسكين غرق فى غفلته مثلنا ؟ .

★★★

الذى أنجب نجلاء كان يجلس فى اليوم الرابع عشر من مايو عام ١٩٦٥ متقوقعا فى غرفته ، متوحدا بموسيقاه الكلاسيك ، هائما فى سحب الدخان المنبعثة من فمه و « بيبته » وأمامه كتاب تاريخ مهترئ مغلق .

خطيب نجلاء السمين يجئ اليوم للمرة الثانية طالبا يدها . عندما جاء فى العام الماضى قال له الرجل :

– لا أزوج بناتى لأحد قبل أن يكملن تعليمهن فى الجامعة . هذا قانون .

قال السمين بلهفة حارقة :

– أنا مستعد لانتظار نجلاء عاما كاملا حتى تحصل على البكالوريوس .

– هذا من شأنك .

– ألا تعدنى بأن تحجزها لى؟

– ألا تفرق أنت بين إنسان وقطعة من الأثاث ؟

اليوم جاء السمين مع أمه ومعهما جاءت الأراضى والعقارات والأطيان بينما تستعد نجلائى لامتحان البكالوريوس ، وتحب نحيفا يدعى محمود أبو النجا الفوانيسى ، والنحيف لا يمتلك شيئا غير ارادته .. وقال الذى أنجب نجلاء للسمين :

– لماذا تريدها يابنى ؟ .. هل تحبها ؟

– إلى آخر المدى يا عمى .

– عجيب هذا الذى يحب فتاة لا يعرفها الا بالشكل .. هل تحبينه يا نجلاء ؟

– !!! ... انها المرة الثانية التى أراه فيها خلال عامين .

استدار فى هدوء وقد انفصل عن الزمن تماما ثم قال محدثا نفسه :

– اذن دعونى أستمع إلى الموسيقا فى هدوء .

بعد انسحاب السمين وأمه قبلت نجلاء أباها بقوة . لكن أستاذا بالجامعة يعرفها وتعرفه نجح فى اقتحام أبيها برقته وثقافته والمامه بالموسيقا والتاريخ . أعجب به العجوز فقال لابنته :

– هذا الأستاذ نموذج للإنسان الراقى . أتمنى أن يكون زوجك .

– لن أتزوج الا من « محمود أبو النجا » .

– من هو محمود أبو النجا هذا ؟

« ابن الجيران » . كلمته عنى كلام العاشقين . « نحن متفاهمان بالفطرة يا أبى » ...

نصحها بمعاودة التفكير . « أحبه » ...

رجحت كفة القوى بحضوره على كفة الضعيف بغيابه وخشيت نجلاء على حبها من هذا القادم الجديد فدخلت لجنة الامتحان وتركت أوراقها بيضاء من غير سوء فى مادتين حتى تثق من رسوبها فرسبت . تأجل الخطر عاما كاملا . لم تخبرنى بما حدث فى حينه . ما أعذب رقتها وشفافية مشاعرها . لن أسمح لقصتى معها - مهما كان الثمن - أن تكون مجرد نسـخة مكررة من القصص التى تقيأت قراءتها فى الكتب وسئمت مشاهدتها فى الأفلام : شاب فقير تحبه حسناء ويحبها ، لكنه يعجز عن الاقتران بها لضيق ذات اليد فيتقدم الفارس المقتدر ويخطفها منه بتأييد أهلها ومباركتهم .

لن أسمح .

نجلاء وطنى الذي أفترش أرضه وأتنسم هواه واطعم من ثمره فكيف يعيش مخلوق بلا وطن وأين ؟ .. بنجلاء وحدها أنشئ وطنا ومواطنين وحياة إنسانية لا تخشى المواطنة ولا تتناقض معها ولا تغترب عنها بل تتوحد معها وتتآلف فى انسجام طبيعى .نعيش حينئذ على أى أرض وبأية وسيلة كريمة مهما كانت بساطتها . نحب العالم والكون والله والطبيعة ونسعد بأننا آدميان خلق أحدهما من ضلع الآخر . نصطحب معنا حواء وآدم وداروين فى رحلاتنا الخلوية إلى جبال سـويسرا وشـواطئ أسـبانيا ومعـابد الفراعنة ووديان الأحلام الزهرية فنصير إلى روحين فى جسـد .. مخلوق الهى واحد : ليكن قطة أو شجرة . ليـكن يمامة أو موجة بحر . ليكن هـذا المخلوق ذو الروحين ما يكون حتى نصاحب زماننا فنأمن غدره .

نجلاء وطنى الذى أفترش أرضه وأتنسم هواه واطعم من ثمره فكيف يعيش مخلوق بلا وطن وأين ؟ .. لقد علمونى فى زمن الطفولة بالمدرسة أنه فى مثل هذا اليوم من حوالى نصف قرن أنهى الانتداب البريطانى على فلسطين وأعلن قيام دولة إسرائيل بتأييد الدول الكبرى ومباركتها . فى ذلك اليوم وقبل أن أولد بخمسة وعشرين عاما وتسعة أشهر وتسعة أيام لم يقل لنا مدرس التاريخ كيف يعيش مخلوق بلا وطن وأين ؟ .

أما عثمان مرعى وكمال عبد الرحيم وعبد الله الهوارى فقد علمونى كيف وأين .. ورغم العديد من الأصفار التى جمعتها عن يمين رقم دولارى صحيح ، الا أنني بعيدا عن وطنى كنت صفرا حقيقيا مطلقا عن يسار هذا الرقم .. ولهذا كان لابد لى أن أعود .

ولكنى حين عدت لم أجد وطنى .. فاخرجوا من بين أنقاضه أيها اللقطاء . تيريز ألا تستطيعين أن تدلينى على وطنى ؟ . مروان تخلى عنى . لن يشعر غيرك بما أشعر به من غم وحسرة فأنت وحيدة بلا سوريال وأنا وحيد بلا نجلاء . وطنى ضاع منى يا تيريز . ورب الكعبة والمشرقين والمغربين لم أجدها ، وانما وجدت صورة ممثل مشهور على غلاف مجلة أكثر شهرة وقد خلعوا عليه ألقاب البطولة والشجاعة لأنه اعترف للمجلة بإدمانه شم المخدرات ، كما خلعوا على زوجته الممثلة نعوتا أجمل وأرق – من بينها لقب سيدة عام ١٩٨٧ – لأنها أنقذته من الشم .. لم يتحدث أحد عن مساءلته أو توجيه الاتهام إليه – لا سمح الله – إذ أصبح فجأة بطلا قوميا وطنيا تاريخيا بالبطاطس والكرنب وورق العنب والسلطة . ألا نبحث يا تيريز معا بين أنقاض هذا الزمان الخرب عن أغلى ما فقدنا ؟ ..

– من أنت ؟ .. وجهك ليس بغريب علىّ .

– دقق فى ملامحى .. وستعرفنى جيدا .

– غير معقول .

– انها الحقيقة .

– أنت محمود أبو النجا ؟

« ثم رددناه أسفل سافلين »

– أنت الذى ... ؟

هناك مخلوقات آدمية رأيتها بعينى ترفض قبول التكريم الالهى لمخلوقاته .

– نعم ، أنا الذى ...

عشرون عاما لم تمح من مخيلتى لحظة الغدر . معالم الوجه القبيح والنفس الداكنة لم يتغير بهما شئ . لم بلغت بك كراهيتك لشاب برئ هذا الحد ؟ . تكلم ياصاحب الفضل– رغم أنفك – فى نعمتى .

– دعنا ننسى ما فات ونتعاون معا .

تبلغ صفاقتك مبلغا لا يصدق . عشرون عاما لم أتذوق خلالها – ولو للحظة واحدة – طعم الاحساس بأننى صاحب دار وقوم وعشيرة . كنت مجرد ضيف معلوم لكنه مجهول . لم أعرف معنى الانتماء فى أى عاصمة من عواصم العالم المتحضر . لم أتذوقه فى طائرتى الخاصة ، أو فى ليالى الأنس والبهجة أو حتى فى ليالى المجون والعربدة .. فأن أعرف هذا الاحساس شئ ، وأن أتذوق طعمه شئ آخر .

- ماذا ننسى يا أخ وفيم نتعاون ؟

- لست أعتقد أن رجل أعمال عالمى مثلك يفكر فى صغائر قديمة انى رهن اشارتك ولنبدأ معا صفحة جديدة .

أنا الآن صاحب الدار الحقيقى وأنت الضيف الثقيل الدخيل . من حقى أن أطردك . بقانونى لا بأى قانون آخر آمرك بالخروج .

- لماذا فعلت بى ذلك ؟

- كنت مخطئا ويحق لك الآن أن أعتذر لك بطريقة عملية .

- كيف ؟

- خبرتى بسوق الاستثمار المصرية الحالية فى خدمتك .

- ما جئت مصر كى أزيد من ثروتى ، وانما جئت لسبب محدد . أجبنى عن سؤالى من فضلك .

بدأ يعتقد أن من حقه أن تنتفخ أوداجه .

- اعترفت لك بخطئى واعتذرت لك . ما هو المطلوب منى أكثر من ذلك ؟

مطلوب منك شئ واحد يا روح أمك . ستعرفه حالا يا قاتل حبى الذى عولت عليه كثيرا من قبل .

- أراك تأخذ المسألة ببساطة مذهلة .

- لأنها لا تستحق أكثر من ذلك .

بل تستحق الكثير يا عثمان .. انها مسألة عمري ..

- ماذا تريد منى بالضبط ؟

– أن ترحل فورا عن مصر .

– ماذا تقول ؟ . لابد أنك جننت . أفقدتك ثروتك عقلك .

ملفك بيدي يابن التعسة . نسخة أخرى مع مروان . عندما يقرؤها سيجئ إلى مسرعا . هذه نسختك . اقرأها أولا قبل أن تظن بى الجنون . تاريخك الملوث مدون بها اجمالا وتفصيلا . كل سطر بها يدينك ويضع الأغلال فى يديك . أما المستندات والوثائق – سواء أكانت حقيقية أم مزورة – فانى أحتفظ بأصولها لأظهرها لأولى الأمر عندما يلزم الامر . فاذا غاب أولو الأمر أو غاب الأمر نفسه فاننى أسلم أمرى لصاحب الأمر وأستلهم العقل من ثلاثة عشر قرن مضت بروحى ، فاهتدى بالقلب وحده والقلوب أربعة . قلب أجرد فيه سراج يزهو فذلك قلب المؤمن ، وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق ، وقلب مصفح فيه ايمان وفيه نفاق ، فمثل الايمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد فأى المادتين غلبت عليه حكم له بها .. وفى رواية ذهبت به . وحسب نظريتى فأنا اليوم مشروع خلية واحدة من صنع الخالق لم تخلق بعد . ورغم هذا فانه لم يخطر ببالى أن يأتي يوم بعد ثلاثة عشر قرن من الزمان أتساءل فيه بعد أن صرت إلى آدمى يمشى على قدمين :

– ترى أى قلب صار قلبك يا مروان ؟

فيجئ مروان بعينين زائغتين ونفس غير مستقرة وقلب مجهول الهوية كما توقعت أن يجئ ويسألنى .

– كيف جمعت عنه هذه المعلومات الخطيرة وأنت فى أقصى شمال العالم ؟ .

– المال الذى يفرق هو الذى جمع .

– هل تطلعنى على أدلتك الحقيقية ؟ .

– وهل تطلعنى على قلبك ؟ .

الاتجار بالعملة فى زمن الحرب . التخابر مع دولة أجنبية معادية قبل ابرام الصلح معها . التهرب من الضرائب . استغلال الوظيفة السابقة للاثراء غير المشروع على حساب مصلحة البنوك المصرية . الاستيلاء على أراضى الدولة بسبل غير قانونية . افساد ذمم الكثير من المسئولين بتقديم الرشاوى اليهم لدفعهم على تجاوز اللوائح والقوانين .. وأخيراً ضياع نجلاء ، وأولاً ضياع نجلاء .

– هذه القضايا تكفى لسجن ذريته مدى الحياة .. ولكن كيف نثبتها عليه ؟

– وأين أجهزتك أيها الهمام ؟

– من المؤكد أنك تفوقت عليها بهذا الفيض من المعلومات .

– انى أنا الذى يسألك هل هذه المعلومات صحيحة أم لا ؟

تتردد يا مروان . أسير مقعدك . سجين وظيفتك . سجان ضميرك . ذليل تراثك الفرعونى وترابك الأميرى . لست أطالبك بالعودة إلى مروان الشاعر والا لوجب على أن أطالب نفسى بالعودة إلى محمود الطفل ، فليس لأحد أن يجترئ على فعل الأزمنة بأكثر من كلمات يقولها أو لوحة يرسمها أو موسيقا يعزفها على أوتار حياته المسيرة .

- ثق بأننى سوف زولى هذا الأمر عنايتى بكل قوة .

بك أو بدونك لن أتوقف فلا أنت الذى أجبرتنى على العودة ولا أنت الذى وضعت ملايينى فى خزانة البنك المصرى . سأتحدى عفاريت مكاوى وشياطين الأرض جميعا . أنى أعرف طريقى .. نجلاء ياتيريز . تيريز يانجلاء . من يقول لمروان كلاما عن لطفى من يقول كلاما عن سوريال ؟ .. ناموا كيفما شئتم ولكن عثمان خائن . اغفلوا وتغافلوا فهو عميل يسرقكم يا بؤساء يا صامتين يا أصحاب النكتة .

- لقد سخرت حصيلة المنفى الذى أرسلتنى إليه فى خدمة هذه اللحظة فقط .

أما وقد قرأت كتابك يا عثمان فاسأل ماشئت .

- إلى أين ؟

- إلى أى بلد تختاره بمشيئتك .

- مالك وحده لن يكفى لطردى فصلاتى وثيقة بأهل الأمر والنهى.

صلتى بكبارهم الآن أبقى من صلاتك بصغارهم أيها المخدوع . أنا الأقوى يا عثمان بحكم قانون الغابة ولا مفر أمامك من الرحيل . لقد دفعت لهم مائة مليون دولار . لا . لم أدفعها لهم ، بل دفعتها ثمنا للجراحة التى ستجرى على الجسد المنهك . ليس هذا المبلغ ثمنا لك كما قد تتوهم يوما ، فأنت لم تعد تساوى شيئا كما لم تكن لتساوى شيئا فى نظرى من قبل .

- لا وقت عندى للجدل فزمامى عمل آخر .. سوف أمهلك أسبوعا واحدا .

- وإذا لم أنفذ ؟

لن تجرؤ يا بطل الأوهام . لقد استسلمت وألقيت سلاحك بلا أدنى مقاومة وانتهى الأمر . عيناك تقولان ذلك . شفتاك المرتعشتان تؤكدان ما تقوله عيناك . حلاوة الروح فقط هى التى تحثك وتستفزك للدفاع عن حياتك والتشبث بنعيم التكية التى تعيش على أرضها مستنزفا دماءها بنهم كذئب مسعور . لكنك ميت لا محالة . حين استأصلك من الجسد العملاق الصامد سيصحو وتموت . تموت يا عثمان . تموت يابن مرعى . تموت يابن التعسة .

– بل ستنفذ فورا .

– ما الفائدة التى ستعود عليك من التخلص منى بهذه الكيفية ؟

حين أتخلص منك فاننى أتخلص من قلب الميكروب فلا يبقى أمامى سوى رأسه وذيله . وليكن فى معلومك أننى أعرف كيف السبيل إلى منع انقسام خلاياك الدنيئة ، فالخلية التى تموت لن تستعوض .

– سأكون سعيدا .

★★★

فى ستة أيام راح لطفى وراح سوريال وراحت معهما « أكبر قوة ضاربة فى الشرق الأوسط » فبكى بوذا وسكت تشنا وضحك زرادشت وقال مرتج المخ ساحت وناحت يا سمرى وقيل جاءوا من الشمال وقال جاءوا من الشرق فراح المصريون وراح السوريون ثم راح الكنعانيون – رغم أنهم راحوا من قبل – وجلست أمام تيريز بالمستشفى وبيننا باقة قرنفل بيضاء وحولنا أشباح موتى ورائحة دماء ، وفى أعيننا دموع تفيض بذكرياتنا فنغرق بترابنا وحياتنا ومماتنا وتاريخ آبائنا وأجدادنا فى

طوفانها الملغز الذى يحتوى على كل الأسرار .

– هل راح دم سوريال هباء يا محمود ؟

قلت لرفيقة الصبا ، وكنت واثقا مما أقول :

– لابد أن نفعل شيئا .

ولكنى لم أكن أدرى على وجه التحديد ما الذى ينبغى أن أفعله أنا – محمود أبو النجا – كما لم أكن أدرى أن عثمان مرعى على صلة وثيقة بكبار رجال المال من الأمريكيين اليهود أو اليهود المتأمركين أو الصهاينة « المتهوركين » .. وأيضا لم أكن أتصور أن يوما سيأتى ليجلس فيه زعيمنا إلى جوار ارهابى قبيح الوجه دراكولى الأسنان ليوقع معه اتفاقية سلام لتكون حرب أكتوبر هى آخر الحروب فيبارك الشعب الاتفاقية ويخدع الصهاينة الزعيم ثم يقتله نفر من ذوى الآراء الدينية فيحزن الشعب لكنه لا يمشى فى جنازته ولا يحزن الارهابى القبيح الوجه لكنه يمشى فى جنازته ومن يكثر من الجماع يجد وجعا فى ظهره وذلك لخلو صلبه مما كان محتبسا فيه من ماء وقد أهبط الله آدم فى الهند ثم مسح على ظهره فأخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ومنها خلق بيجين وعبد الناصر ومحمود أبو النجا وعثمان مرعى وعثمان أحمد عثمان والسادات ومروان وتيريز ولطفى الفوانيسى وكمال عبد الرحيم وزوبة الكلوباتية وعبد الله الهوارى وداروين والقرود والنعاج والطيور .. وكذلك خلق نجلاء .

بكى قلبى يا تيريز فلجأت إلى بيت الله أجفف دمعه . كان صوت الواعظ مرتفعا إلى درجة الصراخ . كنت أتابعه فى البداية لكن تشنجاته الهيستيرية غير المبررة جعلتنى – أثناء جلوسى بالمسجد – أفكر فى

حياتى بتركيز شديد . كيف أفلت من مطاردة عثمان لضميرى وكيف أفلت بنجلاء من الفقر . فى النهاية أديت الصلاة وطلبت من الله الرحمة للمصريين والهنود والعرب والبلغاريين والأفغانيين وبقية سكان كوكب الأرض الرائع الذى لم أندم يوما على وجودى به .. ثم حملت قلبى إلى أمى العجوز صاحبة النظرات الثاقبة النافذة .

الطريق إلى بيتنا مفتوح الأحشاء عن طوب وطمى وكابلات كهربائية ومواسير متآكلة وروائح عفنة ومجارى طافحة على الجانبين تنعى بوارج نلسون ونابليون والأرض المستباحة دوما لصراع الغرباء ، وتترحم على تاريخ راح واندثر بلا ذكريات ، كأنه لم يسطع يوما بأنوار المجد والقوة والجبروت . شقة حقيرة بزقاق حقير يقع فى أحقر أحياء المدينة . ينقبض صدرى بعنف ويصبح تنفسى أمرا صعبا . تتأذى عيناى برؤية الناس وقد اعتادوا القذارة وتآلفوا معها وتحالفوا . عندما سألتنى سائحة شابة التقيت بها يوما بجزيرة نلسون عن السبب فى مسارعة أهل أبى قير إلى المساجد بمجرد سماعهم للميكروفونات الزاعقة الناعقة المؤذنة للصلاة ، بينما يرتضون لأنفسهم معيشة منحطة فى مستنقع من الوساخة تأبى الكلاب اعتيادها . قلت لها ان الإسلام دين يحض بشدة على النظافة ولكن الحكومة تأخرت طويلا فى تنفيذ مشروع المجارى الصحية لهذا الحى التاريخى البائس .

نظرت إلىّ بابتسامة ذاهلة ثم سألتنى بتعجب شديد :

– ماذا يقول قومك عن الله بعد هزيمة يونيو ؟

احتميت بحكمة لا تليق بسنى ، فبداخلى ملاك وديع يؤمن بتعاليم

موسى وعيسى ومحمد ، وثمة ميزان عدل لا يتزحزح عن موقعه عشقا للحق والجمال والحرية . ورغم يقينى بأنه لاقاعدة لأى شئ فى هذه الحياة فانى وجدت أنسب اجابة :

– لست أعرف .

لم أدر لماذا تذكرت فى تلك اللحظة الخليفة المتوكل العباسى الذى كانوا يسمونه بأمير المؤمنين .. يا الهى كم أتمنى أن أهيم فى أرضك الواسعة ولو جعلت منى قردا يقفز على أربع .. ويا أمى انى فى مسيس الحاجة إلى صدرك .

... ...

رغم فحصى الدقيق لجواز سفره وتأكدى من موعد رحيله ، فان هذا لم يكن كافيا . كررت عليه سؤالى الملح .

– لماذا كنت تكرهنى إلى هذه الدرجة ؟

– لم يعد هناك مبرر لأى اجابة . اننى راحل .

لا بأس . هناك أسئلة كثيرة فى هذه الحياة لا اجابة عنها . أنا قد سلمت بذلك .

– رحيلك وحده لا يكفى ، فهو أمر حتمى .

– ماذا تريد بعد ذلك . أليست هذه رغبتك ؟

ليست رغبة . انه قرار . سوف ترحل تاركا سلاحك ، فهذا السلاح عهدة مسروقة يا فالح ، ولقد أمر الله بالستر .

– ماذا فعلت بأموالك السائلة فى البنوك وكذا بممتلكاتك العينية؟

زأر كشلال هادر .

– وما شأنك بهذا أيضا ؟

قرارى لا يتعرض لجسدك بايذاء . خذه معك واخرج . لكن ليس من حقك أن تأخذ معه شيئا آخر .

– كل مالك سوف يؤول إلى أصحابه الحقيقيين .. هكذا تقول عدالتى .

– لقد تجاوزت كل الحدود . انك تعرض حياتك للخطر لو فكرت مرة ثانية فى هذه التخاريف .

– رغم أنك أجبن من ذلك بكثير فان الأمر لن يكلفنى أكثر من رفع سماعة التليفون فيفتح ملفك وتمضى بقية حياتك فى سجن حقير .

احتفظت بجواز سفره . كان يرتعش جبنا . لم أسلمه له الا بعد أن كتب بخط يده توكيلا شاملا باسمى وبحضور محام كبير قام أمامنا – مذهولا – باجراءات التوثيق .

وذهبت « لوداعه » بالمطار . كان طائرا قبل أن يصل إلى طائرته . تعثرت قدماه المذعورتان على السلم فانكفأ على وجهه وسقطت منه حقيبة يده . سارعت المضيفة المصرية لمساعدته بابتسامة صافية لن يرى مثلها بقية عمره .

– فى رعاية الله يا عثمان بك . تصحبك السلامة .. ويمكنك أن تبدأ هناك من جديد .

ألطم وجهك . امش على يديك . تشـــنج كيفما شئت .. وأرنا

يا حصيف كيف ستجد لنفسك الوطن التكية مرة أخرى فى أي مكان بالعالم حتى نهاية العمر .. أما أنا فسوف أجد نجلاء .

★★★

صفان لانهائيان من نخيل يمتدان فى تلافيف مخى . يحصران بينهما طريقا طويلا أقف فى نقطة منه لا هى البدء ولا هى المنتهى . آه أيها التعب حين تلحق بالروح فتجثم فوقها وتنشب فيها مخالبك الجارحة . يارب ما هذه الوحشة التى تضاعف من تعبى ؟ . انى بحاجة إلي انس تفوق حاجتى إلي الحياة . أعرف منزل سائقى . أذهب إليه . أتكلم معه أو حتى أسكت .

– مبروك نجاح ابنك يا شوقى . انى ألمح الجنون فى فرحتك .

– أمل تحقق لى فى هذه الدنيا يا محمود بك .

– وماذا سيفعل بالبكالوريوس ؟

– لا يهمنى ماذا سيفعل . المهم أننى أديت دورى بنجاح والباقى على الله .

– كنت دائم الشكوى من سوء أدبه وسفاهته فى الانفاق .

– تؤدبه الأيام يا صاحبى .

– هل تنتظر منه أن يعينك على مطالب الأسرة ؟

– أنا لا أنتظر شيئا من أحد .

« أنا لا أنتظر شيئا من أحد » . سمعت هذه العبارة بنصها يوما من أمى . عندما يتوقف القلب أموت ، وعندما أموت لا أستطيع أن

أضحك ، ولأننى توقفت من زمان عن الضحك فاننى أخشى أن أموت .

– ذكرنى فيم كان خلافك الأخير مع أمه .

– حاولت أن أذكرها بأنها أنثى واننى ذكر فرفضت .

مازلت أتسول الضحك .

– كيف ؟ .. وأنت لم تتجاوز الخمسين ؟

– قالت لى « عيب يا شوقى » .

– فماذا فعلت ؟

– قيدتها بحبل إلى السرير وحصلت على حقى .

– هل قاومتك ؟

– على العكس . لقد منحتنى أجمل استجابة منذ تزوجتها .

ضحكت حتى دمعت عيناى فتعجبت كيف زال التعب وانزاحت الوحشة ، ورجوت شوقى أن يعود صديقا فلما وافق مشيت بين النخيل يدغدغ مشاعرى حفيف أغصانه وتنزل على قلبى وصوصات عصافيره بردا وسلاما .

★★★

– لا أكاد أصدق أذنى وعينى أنه خرج من مصر .

– لم يخرج يا مروان . لقد طرد .

كاد يذوب فى خجله أمامى . يريد أن يعتذر عن تخليه عنى ولكنه يتردد . يريد أن يكذب فيدعى أنه ساعدنى دون أن أدرى ولكنه

لا يستطيع . مازلت أحبك يا مروان فأنت الآن أخى وصديق عمرى . لم يعد لى سواك بعد رحيل سوريال إلى الآخرة ونديم إلى صحراء العرب ونجلاء إلى المجهول وأبيها إلى الموسيقا العلوية .

– اقرأ هذا الملف .

واعلم يا مروان انه فى يوم ١٤ مايو ١٩٦٥ قد تقرر استبعاد السمين من حياة نجلاء ، وفى يوم ١٤ مايو ١٩١٧ قد تقرر استشهاد لطفى وسوريال بعد خمسين عاما قادمة ، أما فى يوم ١٤ مايو ١٨٠٥ فكان قد تناوب حكم مصر خمسة أتراك على التوالى خلال عام واحد ، آخرهم خورشيد باشا الذى عزله الشعب ، وكاد أن يتولى عمر مكرم الحكم لولا أن اخوانه المشايخ لم يؤيدوه – ربما لأنه مصرى مثلهم والله أعلم – وفضلوا عليه الأرناؤطى بائع الدخان العبقرى الذى تآمر معهم عليه فنفاه إلى دمياط . ولو لم يفعل مشايخنا ما فعلوه لما حكمنا محمد على باشا وفاروق ولما قام الضباط بالثورة وما حكمونا وما كونوا لجنة تصفية الاقطاع ولجنة جرد القصور الملكية . لو لم يفعل مشايخنا ما فعلوه لما حاول الاخوان المسلمون قتل عبد الناصر فى ميدان المنشية ولما فعل كمال عبد الرحيم ما فعل بأبى ، فلا يهم أن يحكمنا كافور الاخشيدي أو شجرة الدر أو كليوباترة أو أم خليل عصمة الدنيا والدين أو حتشبسوت ابنة الاله آمون ، وانما المهم أن نفرق جيدا بين ما علمه لنا مدرس المرحلة الابتدائية أن مصر هبة النيل ، وما علمه لنا مدرس الجامعة أن مصر هبة المصريين ، وعندما نعرف أيهما أصدق يجب أن نعرف أيضا أن هناك مواطنين أوربيين لم يسمعوا عن كلمة « مصر » طيلة حياتهم الا مرات قليلة مثلما لم يسمع معظم المصريين عن سلطان

« زنزبار » المخلوع الذى أتحدث من بعده زنزبار مع تنجانيقا فكانت دولة تانزانيا ، ، ولهذا كان ينبغى على المصريين - بعد مرور مائة واثنين وثمانين عاما على عزل خورشيد باشا - أن يكفوا عن الغناء لمصر أم الدنيا فالدنيا ليس لها أم ولا أب ، والديون التى لا يعرف المُطربون كيف يسددونها لدول الغرب سوف تبلغ أربعين مليارا من الدولارات وسوف أساهم قدر استطاعتى - دون أن أغنى أحبك يا مصر أو يا حبيبتى يا مصر - فى تسديد هذه الديون بأن أقطع الذيول المتبقية من آثار مشايخ ١٨٠٥ وأمحو دابرهم من الوجود على أرض مصر ،

★★★

مع وعيى بالفارق الضخم بين أسعار ديسمبر ١٩٨٧ وأسعار ديسمبر ١٥٩٢ توجهت إلى البنك المركزى المصرى . أودعت المائة مليون دولار الثانية حتى لايظن أحد أننى أساوم مريضا على أجر شفائه ، وكانت الأوامر قد صدرت بعد قيام الثورة بمصادرة أملاك الأسرة المالكة جميعاً من أراض وقصور وأموال وجواهر ورياش وفضيات وذهبيات وخلافه ، وقد تم ذلك تحت شعار « الشرعية الثورية » ، وبعد ذلك صدرت قرارات مماثلة بمصادرة أموال الإقطاعيين وممتلكاتهم تحت نفس الشعار . وقد سارع مماليك الثورة ومحاسيبها إلى القصور ينبهبونها ويحولون مابها من نفائس إلى بيوتهم الجربة الخربة بعيون جائعة وأظافر جارحة ، ثم تجرأ بعضهم واحتل هذه القصور احتلالاً شرعيا ثوريا فكان من نصيب الملازم كمال عبد الرحيم فيلا فاخرة بأرقى أحياء الإسكندرية تطل على شاطئ البحر مباشرة وتحاط بحديقة واسعة ، وقد اعتبرها كمال عبد الرحيم رزقا حلالا « طيبا وفى السماء رزقكم وما توعدون » فى ظل عدالة اجتماعية يتساوى فيها فقراء الشعب بفقراء ومعدمى الأسرة المالكة لأن الله خلقنا جميعا من طينة واحدة ولأنه لافرق بين عربى ولا عجمى إلا بالتقوى ولهذا فلا بأس من شقة فاخرة أخرى على نيل القاهرة - ساحر الغيوب - من شقق الحراسة إتقاء لغدر الزمان الذى لا يأمن له إلا الأغبياء والمغرورون .

ولقد فرشها بالسجاد الايرانى صناعة أهل الفرس وجعل أبوابها من المرايا المرصعة أطرها بالذهب والجواهر وأمدها بالأطقم الفضية المطعمة بالتوباز والعقيق والزمرد ، أما النجف فلا اله إلا الله والله أكبر والنصر للعرب بإذنه ورضاه وأمان يا أهل مصر أمان والعز والدوام والأمن والأمان لمولانا السلطان . ياسيدنا محمد .. « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » .

ويا سيدنا عيسى .. لايقدر أحد أن يخدم سيدين لأنه اما يبغض الواحد ويحب الآخر أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر .

وياسيدنا موسى .. الق بعصاك ولا تعبأ بفرويد .

ويا أيها المواطنون .. فيما يلى وصف تفصيلى دقيق للحجرة كما جاء بالملف رقم ٢ وحواس أخرى متعلقة بها :

١ - الطول ثلاثة امتار .

٢ - العرض ثلاثة أمتار .

٣ - عدد الأفراد المعتقلين بها : أربعون فردا .

٤ - درجة حرارتها صيفا : سبع عشرة مئوية أى عشرون درجة فهرينهيت وستة أعشار درجة .

٥ - نسبة الرطوبة بها : لم يتمكن أحد من قياسها ولكنها لاتحتمل .

٦ - الرائحة عفنة تفوح بالبول والبراز.

٧ - درجة الاضاءة صفر مكعب لايعلى عليه .

٨ – معنى الحرية بداخلها : ممنوع الكلام .

٩ – عقوبة المخالف معروفة تماما لأهـــل الشرق العربى المنحوس .

١٠– الحد الأقصى للعقوبة : مابعد الموت لو كان ممكنا .

١١ – نظام تقديم الطعام : نفس النظام المتبع فى حديقة الحيوانات الأليفة والمفترسة .

١٢ – الاتهام : محاولة اغتيال رئيس الجمهورية يوم السادس والعشرين من يوليو بميدان المنشية بالإسكندرية .

١٣ – أشهر أغانى أم كلثوم : أجمل أعيادنا المصرية بنجاتك يوم المنشية .. ردوا علىّ .

١٤ – الشعب المصرى : أحب جمال عبد الناصر حبا شديداً وسيمشى وراء جنازته حين يموت .

١٥ – أمىً : خرجت من مصر عام ١٩٧١ بناء على رغبتى ومنها عرفت ماكنت أجهل ثم ماتت بمهجرى بعد ستة أعوام .

★★★

يقسم أبى بكل غال أنه لاشأن له بالسياسة وأنه يحب عبد الناصر ولا يعلم شيئا عن محاولة اغتياله ، بل إنه لم يكن موجودا بالميدان فى ذلك اليوم .

– أنا رجل مريض ، والمسافة من أبى قير إلى ميدان المنشية ترهقنى تماما .

– ماعلاقتك بالدكتور منير ؟

– شاب كريم تولى علاجى بالمجان فى أحد مستوصفات الاخوان الطبية .

– كريم ؟ .. هه . وماذا أيضا ؟

– تطوع من تلقاء نفسه بجمع معونة شهرية لأسرتى بعد أن أعجزنى المرض عن العمل .

– وماذا عن اللوحات التى كنت تخطها لهم بيدك ياصاحب الخط الجميل ؟

– لم أكتب حرفا له علاقة بالسياسة ، وهذا لا يخفى عليكم .

– لماذا طردك عبد الله بك الهوارى من خدمته ؟

– أنا لم أطرد يابنى .

– لاتقل « يابنى » مرة أخرى يابن العاهرة .

ويفرقع السوط على وجه أبى . تسيل دماؤه الغالية .

– حاضر .

– هو الذى يقول إنه طردك .

– كذاب .

– لاتشتم أسيادك يافنان .

السوط ...

– أنا الذى أمتنعت عن مواصلة العمل معه .

– لماذا ؟

السوط .. السوط .. السوط .

– تكلم . ألم تقل أن المرض هو الـــذى منعك عن العمل يـابن الـ ... ؟ .

– إرحمنى يأخى .. إرحم مرضى وشيخوختى .

– من يجرؤ على محاولــة التفكير فى قتل الزعيم لايستحق الرحمة .

الصمت .. القهر .. السوط .

تهاجم الآمنين فى بيوتهم قرب الفجر ثم تعود بنفس العربة إلى بيتك محملا بالمسروقات من النفائس . تخشى على موقعك كخشداش من أسيادك الثوريين ومن أسيادهم سلاطين الثورة فتلجأ للخمر والحشيش وقارئات الكف والقمار . تهرب الضحايا الراغبين فى الفرار فتقدم لهم الجوازات المزورة مستغلا ورطتهم ممتصا مابقى بأجسادهم من دماء . ألا تدرى ياخشداش أن كل شئ إلى زوال ؟ .

اليوم أتعرف على ملامح وجهك عن قريب بعد أن حفظتها ذاكرتى من صورك الفوتوغرافية بالملف . هذا الوجه ليس بوجه إنسان . الله يعرف مخلوقاته . صورك مع درية ووجدى و « دلوعتك » كاريمان . صورك فى أوربا مع عشيقاتك المصريات . صورك وأنت تنحنى لأسيادك

. لو شكلت حكوماتك المتعاقبة عشرات اللجان لجرد مسروقاتك لما تمكنت من إحصائها بدقة هذا الملف .. الملف رقم ٢ ياخشداش .. سوف أسلمه لك يدا بيد ، وسوف تقرؤه وتبول فى سروالك حين تتذكر مجدك القديم وعرشك الجليل ومملكتك الزائلة وسوطك النجس يوم كنت تظن ألا اله إلا أنت . سوف تميد الأرض من تحت قدميك العاهرتين وتعمل تلافيف مخك العجوز فى سرعة للبحث عن مخرج ، فلئن خرجت كان بها ، اما ان حـاولت التملص وفكرت فى الاستنجـــاد أو الاستنجاء بأحد فقل لى بمن تستعين يامن لم تعط شيئا لأحد فى حياتك ؟ .. ليس أمامك الا الســلطة والشعب . أما السلطة فقد تغيرت والثبات لله وحده فهو المطلق ، وأما الشعب فقد انفصلت عنه . حتى زملاء مهنتك من الشرفاء الذين لا يتقاضون الآن سوى معاشهم الشهرى الضئيل فان صلاتك بهم قد امتنعت منذ زمن طويل ، فضلا عن أنهم قد أصبحوا الآن بلا حول ولاقوة .

أنت نكرة ياخشداش . لايعبأ أحد بوجودك على هذه الأرض كما لن يشعر أحد بأهمية بقائك بها أو خروجك منها سواى . حتى الذين قد يعبأون لكنهم يكتفون بالصمت والفرجة فأنا قد صرت ممثلهم . فوضت نفسى - بغير اذنهم - للنطق بلسانهم .

إنى أتهمك بتحريض بيجين على ضرب المفاعل الذرى العراقى واحتلال شطر كبير من لبنان . أتهمك بتسهيل مهمة السفاحين الذين أداروا مذبحة صابرا وشاتيلا ببراعة شهد لها العالم المتحضر والمتخلف . أتهمك بالتواطؤ مع العدو فى خداع أنور السادات حتى جعلتموه يصدق أكذوبة السلام مع إسرائيل فيوقع بإمضائه إلى جوار

الارهابى العريق معتقداً أنه بهذا التوقيع سوف يحقن الدماء ويمنع الحروب ويحقق الرخاء لشعبه ويعوضه عن صبر السنين .

★ ★ ★

أتكئ على زمانى القديم . ألتقط أنفاسي لحين . أمتص بجذورى الطويلة جرعة شافية من عصارة المجد الغابر . أجدادنا ياتيريز قديمون قدم الأزل الغارق فى سباته العميق . أقدم من كل الأجداد فى أى مكان بالدنيا . عبدوا الشمس والقمر والحياة والموت والأصنام والطواطم والاله الواحد وأحبوا آلهتهم ونوعوها من جد إلى جد . ان ذهب اله جاء اله . وإن راح اله ظهر آخر . أجدادنا وآلهتنا كانوا طيبين أحبوا أجداد الدنيا البعيدة وآلهتها وتناكحوا معهم وتناسلوا : زيوس وايزيس . تصادقوا وتآسخوا : أبوللو وآتون . ما أكثر أسماءهم وما أكثر حتى أسماء موطنهم القديم : جبت . قبط . ايجيبتوس . ايجيبت . مصرايم . مصر . مصر العربية « واقرأ باسم ربك الذى خلق » . خلقنا - أنا وأنت ونجلاء - من مصهور امتزج فيه الحام والسام لنصبح كائنا بحريا صحراويا عربيا .. فكيف تضيع نجلاء منا وهى ذائبة فى كياننا المتوحد ؟ . انى أكره فعل « يضيع » بمشتقاته كافة . هيا بنا نناضل ياتيريز بحثا عنها . نجوب الأرض فى رحلة حياتنا الباقية . من مصر إلى بابل إلى الأندلس إلى اليونان إلى روما إلى كل الدنيا . أضع فمك الجميل فى فمى ونتذوق أشعار التروبادور وفلسفة الإغريق ونستمع إلى الربابة والكمان . أضع عينيك فى بؤبؤ عينى ونتأمل فى آثار الفراعنة واليونان . أحفظ قلبك فى قلبى فنهيم معا فى نفحات النور العلوية

ونشاهد كنائس العرب ومساجدهم وفنونهم الساحرة .. وان لم نجد نجلاء فسوف نجدها فينا . وليكن منا مصهور جديد تحول مناعته دون فنائنا معا بعد ضياع نجلاء ، فلا بديل أمامنا عن ذلك .

لو أحببتك ياتيريز فلن أخون نجلاء لأنها تحبنا ولأنها تريد لنا البقاء . أما الخيانة فدمي منها برئ وجسدى مطهر .. وبعد هذا كله فقلبى يحدثنى أن نجلاء لن تعود الا لتشهد عرسنا ، فلو أحببتك لأنى أحب فيك نجلاء فلا تغضبى ، ولن تغضبى - أنا أعرف - فأنت تحبيننى فيها وتحبينها فى ، وطفولتنا جميعا تشهد على ذلك . لو أحببتنى ياتيريز فلن نكون وحدنا السعداء . سيشاركنا الرحلة أحباؤنا باخوم وأبو النجا والخوارزمى وابن الهيثم وابن حيان وابن الرازى . لن يعوزنا شئ . لن نضل ولن نمرض ولن نتخلف عمن سبقونا إلى الرحلة . انها رحلة العمر ياتيريز . انى أحبك يانجلاء .

★ ★ ★

الحراس مدججون بالأسلحة . العيون تبرق بالحرص والتوجس والحيطة والحذر . لماذا قرأت الملف ثم اختفيت يامروان ؟ .

- بطاقتك الشخصية .

- أنا ابن عمه .

- البطاقة من فضلك .

كنت تعلم اذن بالجريمة وتتسلح بصمت هو التخاذل بعينه . يتبع ذلك أن يسلحوا الجنود لحراستك يسامهم . يسبق ذلك أن يقتلوا عمك

لمجرد الاشتباه . شاب – منفصم – فى عنفوان قوته ينهال بالسوط فى استبسال لانظير له على وجه عجوز مريض أنهكه قهر الأزمنة السوداء المتعاقبة .. وتسألون عن بطاقتى يامساكين ؟ .. .

– ليس معى بطاقة .

– أمعك جواز سفر ؟

قدمت لهم جواز سفرى الأمريكى . فتحوا أبوابهم على اتساعها وأدوا لى التحية ، لست أدرى ألأنهم تأكدوا من قرابتى لرئيسهم الكبير أم لأن جواز السفر الأمريكى له سحر خاص يفتح كل باب مغلق .. عموما فقد تعجبت وحزنت .. ودخلت بيتك يامروان .

استقبلتنى سلوى استقبالا حنونا مشعا بالتعاطف . عاتبتنى على قلة زياراتى منذ العودة . أحترم هذه السيدة الجليلة زوجة الموظف الحكومى الكبير الذى يقضى معظم عمره خارج منزله ولا يتقاضى فى المقابل الا مايقيم أوده .. مأساة الشرفاء فى أوطاننا يعرفها الجميع .

قالت سلوى فى استسلام .

– حالته النفسية هذه الأيام فى الحضيض .

دعنى ألتمس لك الأعذار يامروان لأنى أريد ذلك ، فاما أنها تعليمات تلقيتها بالصمت ، واما أنك لم تصدق حين علمت ، واما أنك لم تعلم لأنك كنت صغيرا وقت الجريمة فلما كبرت وأصبحت منهم أخفوا عنك النبأ ، أو أن مسيرة الأحداث لم تسمح بفرصة واحدة للحديث عن عمك فظل سره خافيا عنك .

– لماذا ؟

– تخطـاه فى الترقية زميل انتهـازى لايصلح للعمل بكل المقاييس .

سلوى تعلم ما كان بين مروان وصفية ، لكن أحدا لا يعلم شيئا عن مأساة صفية غيرى أنا وأمى وأبى رحمهما الله .

– وماذا فعل ؟

– انه لايفعل شيئا سوى قراءة الملف الذى أخذه منك .

سلوى ومروان صديقان . لايستطيع ولا يحب أحدهما أن يخفى عن الآخر شيئا . من المؤكد أنها تعلم بتفاصيل ماجاء بهذا الملف ، لكن حياءها يمنعها من الإشارة إلى ذلك مادمت لم أسألها . ما أورع الصداقة بين زوجين .

– هل انتهى من قراءته ؟

– نعم ، ولأكثر من مرة .

عندما إنتهيت من قراءة الورقة الأخيرة بهذا الملف فى أمريكا تذوقت طعم الشعور بالثقة . ذلك الشعور الذى كتب على أى فقير أن يحرم منه مهما أوتى أو ادعى أنه أوتى من أسباب أخرى للسعادة . لقد جربت لفترة عابرة من شبابى قبل الهجرة أن ألجأ إلى قوى الغيب بحثا عن تلك الثقة المفقودة فى غياب المال ، وقلت اننى لو نجحت فى العثور عليها فلن أحيد عن ملجئى إلى الأبد ولن أعبأ حينئذ بمسألة المال ، فكيف أعبأ بشئ وثقتى مستلهمة من نبع مقدس ؟ .. لكنى لم أكمل التجربة ولم أوفق فى المحاولة . هاهو الملف أمامى على أرض مصر ، فما معنى ثقتى الآن بنفسى على ضوء تلك التجربة التى لم تكتمل ؟ .

إنى أشك فى أن ثقتى بنفسى نابعة من ثرائى فحسب ، كما أشك أحيانا أخرى فى وجود تلك الثقة . أكاد أجزم أن هذه السيدة الجالسة أمامى رغم تواضع قدرتها المالية تتمتع بثقة أكثر منى ، كما أكاد أجزم أننى مهما حاولت فلن أعرف السبب .

– وكيف كان رد فعله ؟

– قال فجأة أنه مسافر فى مهمة إلى الخارج .

تهرب يامروان . أنا لا أطالبك الآن بأكثر من حماية جسدى فهو العائق الوحيد الذى يمكن أن يعترض طريقى . قد يعتدون عليه . قد يتخلصون منه نهائيا . لن يحمينى سائقى وسكرتيرى وحارسى الخاص لأنهم لن يفهموا ألاعيب هؤلاء الملاعين فى تعقبى ومطاردتى بكل مكان .. فإما أن تعطى طاقم حراستى حق اطلاق الرصاص واما أن تتولى حراستى من خلال رجالك . ان ما يبقى على ثقتى بنفسى ليست ثروتى وإنما أيمانى بأن عدالتى التى أسعى إلى تحقيقها لاتختلف كثيرا عن عدالة الله .

– متى ؟

– خلال أيام قلائل .

– هكذا فجأة ؟؟

– أعتقد أنه يتهرب من شئ ما ، لأنه كان يرفض هذه البعثة منذ عدة أيام .

أنا الذى يعرف مم يهرب . لكن ماذا بيده أن يفعل وقد حبسته وظيفته فى قمقم الخوف الأميرى ؟ .

معضلة مروان أنه يعرف ماذا يريد ، لكنه لايستطيع أن يريد .

هأنا أعطى لنفسى الحق فى نقد إنسان كل جريرته أنه سيئ الحظ ، رغم أنه لولا المصادفة لربما كان حالى أسوأ من حاله فالأمر لايرجع دائما إلى الإدارة الإنسانية وحدها . ان قفزتى من الفقر إلى الثراء لم تنجح من منطلق إرادتى منذ البداية ، فالأقدار تأمر دائما ولكنى أنسى فأنا إنسان . مسكين يامروان . وقف أمامى - مثلما يقف دائما - كمذنب .

- لقد حدث هذا يامحمود .. وتأكدت بالفعل من مقتل عمى بالمعتقل .

- هل تأكدت مؤخرا أم كنت تعرف من قبل ؟

- ليس لهذا السؤال أهمية .. يكفى أنه قد حدث ماحدث .

- ......

ما أتعس الموظف حين يطأطئ برأسه إلى الأرض . أكاد أقبض بيدى على سر هزيمته ولكنى لا أجرؤ .

- تريد أن تسألنى عن موقفى الآن .

- لن أسألك .. سوف أطالبك بشئ واحد .

- ماهو ؟



فى مهجرى كنت أستطيع الحصول بسهولة على جرائد بلدى ومجلاتها . أبدأ دائما بصفحة الوفيات ، أصل جذورى وفروعى بالمنبع والمصب ، وأصب من تفاؤلى فى تشاؤمى ومن أفراحى فى أحزانى حتى أحتفظ بثباتى وتوازنى فى مواجهة رياح الاغتراب المسمومة ، أتفرج بنهم على النكات الكاريكاتورية التى تسخر من الشخصيات النمطية المصرية ، فهذا هو قاسم السماوى الساخط أبدا على سوء حظه وحسن حظ الآخرين ، وهذا هو كمبورة الانتهازى المعاصر الذى يلعب بالبيضة والحجر وينافق السلطة ويعرف من أين تؤكل الكتف . ثم أقرأ مايكتبه أنصار السادات على استحياء عن الذكرى السادسة عشرة لما أسموها بثورة التصحيح .

منذ قرارات ديسمبر « الثورية الشرعية » عام ١٩٥٢ وحتى اليوم لم يتوقف كمال عبد الرحيم لحظة واحدة - ولو ليلتقط أنفاسه - عن جمع ماتطوله يداه من مسروقات ثورية ومنهويات شرعية . كان خصوم السادات يعمدون إلى اثارته بقولهم إنها حركة تصحيح وليست ثورة .

لم يكن من السهل على أحد أن يحتسب كمال عبد الرحيم على قوة الثوريين الشرعيين الأطهار أو على قوة الثوريين الشرعيين الخطاة أو على جماعة من أسماهم السادات بمراكز القوى أو حتى على من أوكل اليهم السادات مهمة التخلص منهم ، الذى حدث أن الجميع قد غفلوا عن كمال عبد الرحيم فبقى على حاله منكورا سعيدا بانكاره . ولهذا فإنه حمد الله كثيرا وشكره فى كل صلاة جمعة ، إذ كان يحرص بشدة على تأدية هذه الصلاة دون أن يؤدى غيرها . حمده وشكره على فيلا الاسكندرية وشقة القاهرة وسيارة زوجته وسيارة إبنه وسيارة ابنته ، أما الحديث عن محتويات البيتين ومصادرها فلا مبرر لتكراره .

وأما رصيده السائل فى البنوك فقد كان ضعيفا - وضعه للتمويه فقط - مما يؤكد أنه يخفى أمواله الحقيقة بمنزله « تحت البلاطة » و « يرزق من يشاء بغير حساب » .

الذى استجد بعد ذلك حين بدأ هذا العام - ١٩٨٧ - هو انهماكه فى تجهيز عيادة طبية على أحدث طراز عالمى استعدادا للاحتفال بتسليمها للدكتور وجدى فور وصوله من أوربا حاملا شهادته العليا .. وكذلك فى تجهيز صيدلية كبيرة أنيقة ذات ديكور متفرد ليهديها إلى كاريمان فور حصولها على بكالوريوس الصيدلة خلال أشهر قليلة . وأخيرا فإنه - بعد تردد طويل - اشترى يختا صغيرا ألحت درية فى شرائه حتى يستمتعوا بنزهاتهم البحرية بعيدا عن العيون الحاسدة الحاقدة الجائعة المحرومة التى يحب أصحابها أن يمتلكوا ولا يعملوا . لاتغضب منى ياكمال بك فأنا لست أنتمى إلى هذه الفئة الضالة ، وربما لاتعرف أيها الضابط الكبير معنى كلمة الانتماء فسوف أفسرها لك بعد العودة . ان الانتماء إلى وطن أو حتى إلى فئة هو وثيقة تؤكد تبادل الإنتماء من كل طرف إلى الآخر ، أما إذا كان هذا الإنتماء من جانب واحد فقل عليه وعلى طرفيه السلام وسامحنى .

إننى أعمل هنا ليل نهار منذ مايقرب من عشرين عاما ، وسوف تتأكد من صدقى حين أعود وألقاك . هانت ياعم الحاج . شهور قليلة ونلتقى بإذن الله . لقد تركت أمى فى مصر لأن عثمان مرعى هو الذى قرر ذلك . لم يكن أمامى بديل . مات أبى منذ ثلاثة وثلاثين عاما . أنت الذى قررت ذلك . انتحرت صفية منذ ستة وثلاثين عاما . عبد الله الهوارى هو الذى قرر ذلك .. فاسمحوا لى أيها الأوساخ أن أتخذ اليوم قرارا واحدا بشأنكم .

تجلسون الآن فى الآندية الراقية وتمرحون وتستمتعون بتنشيط دورتكم الدموية ، تتناولون الغداء فى فندق والعشاء فى فندق آخر . القانون فى صفكم شرعيا وفى جيوبكم ثوريا . « كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون » تلذذوا باستحلاب المتعة واستنفاد الشهوة حتى النخاع فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » . بعد عشرين عاما فى امريكا أقول فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم .

من هجرته إلى المدينة عاد محمد إلى مكة فأدب أعداءه ثم سامحهم فخف وزنى وطرت . من الجليل عاد عيسى إلى أورشليم لكنه اكتفى بالسماح فقلب حبيبى وطنى . من أرض مدين عاد موسى إلى مصر فأغرق منفتاح وجنوده وعبر بقومه البحر الأحمر سالما غانما ولفظ البحر جثة الفرعون ولفظت جسدى فعلوت . أما محمود أبو النجا فعائد من أرض ريجان الأنيق إلى أرض مصر الفقيرة بعد أن صارت الخلية الواحدة كائنا بشريا قويا غنيا يقول : بيت حبيبى قلبى . ثأر حبيبى ثأرى . كائن تصوفت رغبته فى الانتقام وتسامت به إلى روح العدل والحق والقوة وصلى الله وسلم تسليما كثيرا على رسله وأنبيائه فماذا تساوى اليوم أيها الخشداش ؟

– محمود أبو النجا .

هناك من لايؤمن بيوم البعث ولكنى أؤمن به وأنتظره وأعمل له حسابا وألف حساب ..

– معذرة .. أنا لا أذكر من أنت .

تذكرنى أو لا تذكرنى فلقد ذهبت إليه وأتانى من أمامى ومن خلفى ومن فوقى ومن تحتى فأنصفنى ورعانى وأعزنى ونصرنى .

تذكرنى أو لاتذكرنى يامسكين فقد أوقفنى فى التمكين والقوة من احتجب فى ظهوره وظهر فى حجابه .

– أبو النجا الفوانيسى .

ثم رددناه أسفل سافلين . يشرد فى غباء ، يتدلى كرشه . ينطفئ نور عينيه . أرى سواد قلبه .. وأتحول إلى نور حارق .

– ألا تذكر أحداً بهذا الإسم ؟

– لقد كبرنا يا أخ وشاخت الذاكرة .. عموماً ماذا تريد ؟

لست أريد الانتقام ياأضبش (*) . حتى لو لم يصدقنى أحد فلن أبالى . إنها قوة أكبر منى وأعظم وأجل تدفعنى إلى هذا الطريق . أنا اليوم روح بعثت فى أمر . أنا الآمر وعليك الطاعة حتى لو كنت إبليس ذاته وإنى لأراه فيك ، فالنهم يتساقط من شفتيك الغليظتين ، والكراهية تفوح من فمك القبيح ، والوساخة تتجلى فى أسنانك السوداء . إننى أحزن بشدة كلما تذكرت صندوق موسى وصليب عيسى وشجرة محمد الباكية وأدركت كم ضاع نضال الثلاثة هباء فعاش على هذه الأرض مخلوق من أمثالك فمن ذا الذى يدلنى على الفرق بين مشاعر الانتقام عند مصرى وأمريكى وفلسطينى واسرائيلى ؟ .

لم أجد شيئا يستحق أن أبرر به لنفسى خداع نفسى . أن روحا شيطانية عاتية تتسلط على وجودى وأرى السماء من عجب تباركها . روح تهددنى بالحرمـــان الأبدى من الســـــعادة مالم أعرف كيف أنتزع

(*) أضبش .. كلمة غير موجودة بقاموس اللغة العربية ولست أظنها موجودة فى قواميس لغات العالم الأخرى .

حقوق أحبائى المغتصبة .. وانى لأرتعد خوفا كلما تمثلت أمامى تلك الروح الطاغية المباركة فى صــورة ملاك يعجز عن التحليق بجناحية الجريحين فيتعثر وأسمع أنينه يضرب بعنف فى بطين قلبى . أمد له يدى مداويا جراحه فلا أتركه حتى يطيب ويقف متوازنا ثم يطير محلقا فى العلا بعد أن يمنحنى ابتسامة الرضا والاطمئنان ونفحة الأمل فى السعادة ماقدر لى من عمر أحياه .

إن ماينتابنى من إحساس وجدانى فوار متأجج يكاد يقترب فى قدسيته من الدين ، لم يكن للأسف سوى تعبير مادى عن عدم استطاعتى أن أتنازل عن رغبة يقينية ومصيرية فى الانتقام مهما خف وزنى أو صعد جسدى أو تعالت روحى إلى تلال قمم الأبدية الشاهقة .

– جهز نفسك ياكمال . ستخرج من مصر .

★ ★ ★

فجأة أصبح لاحديث للأمريكين الحمر إلا عن Hغتيال السادات فأصبحت بلادى الصغيرة الفقيرة مشهورة بين يوم وليلة . السادات هو الثورى المصرى الثالث بعد نجيب الذى أهملوه وناصر الذى كرهوه . لم يتحدث أحد هنا أو فى مصر عن أُغتيال أبى النجا رغم أنه لافرق بين أبى والسادات وأمنمحات وماوتسى تونج . الذين اغتالوا السادات هم أبناء عمومة الذين حاولوا اغتيال عبدالناصر وكذلك الذين إغتالوا أمنمحات .. أما الذين اغتالوا أبى فسوف ألتقى برجلهم لأتأمل بعينى كيف تكون ملامح وجه القاتل وكيف أميز بينها وبين ملامح الإنسان .

سافر فورد ونيكسون وكارتر للاشتراك فى العزاء لكن أبى دفن فى صمت . أقيمت الأحتفالات فى ليبيا وسوريا ولبنان ابتهاجا بمصرع « الخديوى » المصرى . قال توفيق الحكيم فى جلسة خاصة مع بعض أدباء الاسكندرية بمجرد وقوع الحادث :

– أحسن .. حتى يعرف العالم أن فى مصر رجالا .

وقال نجيب محفوظ فى نفس الجلسة.

– لقد سجن مصر بأكملها يوم ٥ سبتمبر

وقالت امرأة :

– والنبى كان دمه خفيفا

ووصف محمد حسنين هيكل قاتل السادات بالبطل ، أما فضيلة الشيخ جاد الحق على جاد الحق مفتى مصر فقد قال ان السادات شهيد فى سبيل الله والوطن ، وقد احترت أيهما أصدق .. وقد انقطع مروان عن مراسلتى لفترة طويلة ولم تنقطع تيريز . ولما سألنى أمريكى عن رأيى فيما حدث قلت له إننى قليل الخبرة بالسياسة لأننى لست أفهم تلك الحقائق الرصاصية اللون فيما يجرى فى بلاد الله بين الأبيض والأسود . كل ما يهمنى أن ثالوث الغدر ما زال آمنا فى مكمنه لاينال منه ضر ولا أذى . نظر إلىّ الرجل فى أشفاق فتذكرت تلك الرصاصة السحرية الخارقة التى أصابت شخصية هامة من كبار رجال الدولة فى مركز منتصف مؤخرته بدقة متناهية عندما أنبطح لتفادى الرصاص ، وضحكت حتى دمعت عيناى دون أن أستلقى على قفاى – رغم تعدد قراءاتى لألف ليلة وليلة – لأننى لم أكن أحب هذا

الرجل ، ولكنى لم أكن أنتظر أن تكون هذه نهايته . ترى هل تتهدد مؤخرة عهدك الانفتاحى ياعثمان بعدد مقتل السادات ؟ .. انتفخ وتمدد كيفما شئت فإنى أرصدك . أخترق ضميرك . أتعقب خطواتك . لن أعتقك إلا على باب الطائرة .

بعد أيام وصلتنى رسالة من تيريز . أحب الرسائل منذ طفولتى. تمنيت يوما أن تصلنى رسالة من الله يجيبنى فيها عن أسئلة عديدة أهمها لماذا جئت إلى الدنيا ولماذا لم يكن أبى غنيا ؟ . اغتيال السادات جدد أحزانها . أنا أعلم انها تحبنى . سوف أكتب إليها غدا . ماذا أقول لك ياصاحبة الفضل الأول فى ملفاتى الثلاثة ؟ .. هاهى تلمح لى برغبتها فى مغادرة ايجيبتوس والمجىء إلى هنا للحياة مع الهنود الحمر والحصول على جنسيتهم الأمريكية إن أمكن ، ومصر والسودان لنا وبريطانيا ان أمكنا فصدقى بيفين هو أنور بيجين كما تقول لى بعد أن أصبحت مقطوعة من شجرة .. ولا غبار على امرأة تبحث عن رجل يحبها ويحميها وتعيش فى كنفه كأنثى تشم دخان سجائره وتعبث فى شعر رأسه وترى فى قامته مئذنة وفى صدره قلعة وفى دفقات رجولته أقصى متع الحياة. واقعية أنت ياتيريز رغم رومانسيتك المفرطة . لو عاش معك ناقد أدبى لعرف كيف يصنع من كيانك الجهنمى مذهبا أدبيا جديدا يجمع بين النقيضين . أنا أيضا فى حاجة اليك لثقتى بأنك المرأة الوحيدة من بين نساء العالم التى يمكن أن تعوضنى عن نجلاء .. ولكن هل ضاعت نجلاء حقا وإلى الأبد ؟ .. إنى أعتذر عن كثرة حديثى عنها معك ياتيريز فأنت ومروان تصران على القول باختفائها وأنا لا أفهم معنى هذه الكلمة الرمادية المائعة . هل ماتت هل انتحرت ؟ .

فليقطع أحدكما شكى بيقين . لو قلت لى الحقيقة مهما كانت مرارتها فسوف أقبلها وستكونين زوجتى . لقد مللت بيع جسدى للشقراوات بلا مقابل وباتت روحى فى مسيس حاجتها إلى أنسك . إنى مدين لك بالكثير ، ولقد أرهقتك بما لاطاقة لك به . كونى على حذر شديد وأفعلى الآتى قبل لقائنا القادم فى باريس : ٤٥س ل ع . داد ومنتويم موسى سكم والدفع ثم إلى ١٧م ن فالاله التمساح . والنبى لاهشه ياالعصفور . المزيد من المستندات الدالة على ذلك والتسليم عند حضور شوقى . الموعد التالى فى ميونيخ كالمعتاد . ٨٧١٣ ط ظ . توجهى لاستلام الشيك قبل يوم ١٧ القادم . رع . رع . رع . شكرا .

الحادى والثلاثون من ديمسبر عام ١٩٨٧ .. وأنى عدت بسم الله الرحمن الرحيم . كل الخشوع والتسليم « الحمد الله رب العالمين » مهزلة أرضية فانية ترقبنى الآن من خلف الأسوار الصامتة . عشرون عاما سقطت منى فكم تبقى لى فى جعبة العمر ؟ . الرحمن الرحيم . أيتها الشواهد الشامخة الذليلة لك فى عينى أعزاز عجيب « مالك يوم الدين » منذ أكثر من ساعة أقف بين السابقين أحياء ومجهولين ولا تطاوعنى قدماى على الرحيل « أياك نعبد وأياك نستعين » لاتستجيبان لالحاح المهزلة المنتظرة بالخارج « إهدنا الصراط المستقيم » الشد والجذب . التقارب والتنافر . الأخذ والعطاء . الأبيض والأسود « صراط الذين أنعمت عليهم » يزحف النبات الأخضر فى قلب الموت متسللا حول رفات أبى وشقيقتى يحيط ببيتهما الوقتى فى رحمة ومودة . رائحة التراب جميلة « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » تصفو مشاعرى فأرق وأسمو وأستسخف مافعلته واستخف بما سأفعل .. آمين .

المقرآن يتقاتلان كما يفعل الآخرون تماما خارج السور منذ الخلية الأولى وقابيل وهابيل وحتى عمليات زرع القلب . أحدهما يقرأ آية الكرسى عن يمينى وأنا أقرأ الفاتحة على روح أبى وروح صفية والآخر يقرأ سورة الرحمن عن يسارى . لايعرفان حكايتى ولا حكاية أمواتى ولا يهمهما أو يهمنى أن يعرفا شيئا . الله لا اله الا هو الحى القيوم لاتأخذه سنة ولا نوم . آه . لوكان ممكنا أن تتشبث روحى بهذه السكينة المقدسة بقية العمر لكنت ملك الملوك . أنعم بنومك يا أبى وأنعمى بنومك ياصفية وليغفر الله لك ذنبك ياملاكى الوديع « والسماء رفعها ووضع الميزان » لن أسمح – رغم الصفاء والسكينة – باختلال مقاييس العدل خارج أسواركم أيها الموتى جميعا ، لأبى وشقيقتى فحسب . سأعيد اليكم الأمل داخل قبوركم ولترفرف أرواحكم بهجة بالحق والعدل « له مافى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه » يرفع المقرىء الأول صوته . يكاد يصرخ بتلاوته العاجلة المضحكة حتى يصرف انتباهى عن المقرىء المنافس فى حلبة الموت . خذا مابجيبى وارحلا عن وجهى . ظلت أمى تأكل أربعة أعوام على نفقة ابن عمى . مهما تخاذل عن مساعدتى فلن أنسى جميله مدى حياتى . عندما بدأت شراء المتجر الأول طلبت منه أن يرسل أمى إلى منفاى الإجبارى لكنه قاوم طويلا قبل أن يرضخ لرغبتى ورغبتها .

– اقرأ ملفك باكمال ، ولن يكون بيننا قبل ذلك كلام .

هذه هى سكينتى ولا سكينة الآن عندى سواها . تخرجوننى أخرجكم . تقتلوننى أقتلكم . « وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا

الميزان » . أصحاب النكتة الغافلون يتركونكم ترتعون دون عقاب ، ويفقد الوطن ذ اكرته ويسمون هذا بسيادة القانون . كبارهم جميعا على شاكلة مروان بغض النظر عن نواياهم « يعلم مابين أيديهم وما خلفهم » أضيع عمرى هباء لو قدمت لهم ملفاتى الثلاثة أملا فى أن يتولوا حسابهم طبقا للقانون « ولايحيطون بشــىء من علمه الا بما شــاء » سوف يبحثون عن الأدلة ويشكلون اللجان ويرفعون التقارير إلى الجهات الأعلى ثم يأكلون الحمام « والأرض وضعها للأنام » حتى لو نجحوا فى ادانتهم فانهم سيمنحونهم شرف السجن على تراب الأرض التى طردونى منها « وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم » صدق الله العظيم . فى لمح البصر انتهى المقرىء الأول من تلاوته وسوف أكتفى بنزع سـلاحهم « فبأى آلاء ربكما تكذبان » صدق الله العظيم . انتهى السباق . أعطيتهما بسخاء لأصرفهما من أمامى فنظرا إلى بذهول وأعتقدا بى البله . ثم فوجئت بهما يجريان كمن يفران من ذعر عظيم وهما يلتفتان من خلفهما بين الحين والآخر حتى غابا عن ناظرى فتنفست بارتياح وعادت إلى سكينتى فدخلت إلى خارجى وخرجت من داخلى وتهافتت أمامى علاقات الأشياء بما خفى من أشياء فوقعت على كنز .

– افعل بى ماتشاء ولكن ارفع يدك عن أولادى حماك الله

ما أسرع أن تستسلموا أيها الكلاب ، وما أبرع حيلكم وأفانينكم فى التلون والالتواء والأمل فى ايجاد المخــارج . أما الجديـد فى الأمـر فهو حديثكم عن اللـه . تريد أن تذهب أيها اللبيب وتترك نهيبتك لأولادك . تذهب إلى أى داهية فيبعثون اليك بالمدد .. وحين تريد أن

تراهم فما أسهل أن يسافروا اليك . ياسـلام يا أخى على ذكائك وعبقريتك . أحلم كيفما شئت فليس من حقى أن أصادر أحلامك طالما لم تتجاوز حدود صدرك .

– تأكد أننى لن أمس أحدهما بأذى جسمانى

– وماذا تنوى أن تفعل بى ؟

هكذا تُنهى موقفى منك بطمأنينة حاسمة تجاه أولادك يابارد الدم وكأن الأمر قد أنتهى .. المسألة عندك أهون من أى قلق وهذا يؤكد أن الله قد خلقك – دوناً عن العالمين – بلا جهاز عصبى .

– ليس من حقك أن تسألنى شيئا . أنا أسأل وأنت تجيب ياقاتل أبى .

– ...

– كيف طاوعك قلبك وطاوعتك يدك أن تنهال على الشيخ العجوز بسوطك ؟

– كنت أنفذ التعليمات

– كذاب .. كنت تتلذذ بتعذيبه . قل الحقيقة

– صدقنى يامحمود بك . لقد كنت أتألم وأنا أضربه

– قياسا على ذلك فـان ألمك قد تضاعف عندما سقط قتيلا بين قدميك

–يعلم الله بحقيقة مشاعرى

يتحدث الحيوان عن الله مرة أخرى .. ثم عن المشاعر .

– هذا صحيح ، لكنى لا أعلم ما يعلمه الله ، ولهذا فأنا مضطر للقيام بتجربة عملية .

صحت بثبات . كان صوتى جريحا نازفا .. لكنه كان واثقا .

– هات الكرباج ياشوقى

رغم برد الشتاء فقد غمر العرق جبينى وتهدجت أنفاسى . خمس جلدات لم أزد عليها ثم توقفت . كان صراخه يزلزل المكان المغلق .

– الآن تأكدت أنك تكذب ياعجوز

– ....

– لقد شعرت بلذة جنونية طاغية أثناء ضربك لايمكن مقاومتها حتى لو سقطت ميتا بين قدمى

– ....

– لكنى أكثر منك صراحة وشجاعة فأنا أمارس لذة الإنتقام أما أنت فأى لذة كنت تمارسها مع أبى ؟ . ماذا فعل بك أو بأبيك أو بأمك؟

– أفعل بى ماشئت ، ولكن أولادى .. أولادى

ينهال على حذائى تقبيلا . يتعلق بساقى وتمتزج دموعه بعرقه . بمخاطه بدمه بذلته بجنبه .

– لامبرر عندى لمواصلة تعذيبك . لقد كانت مجرد تجربة لاثبات كذبك .

وينتابنى كدر عظيم ولا أسأل نفسى لماذا عدت . كل ما يعنينى الآن أن أستطيع التنفس بيسر ، فالكنز الذى عثرت عليه كان وهما .

– حدثنى عن نفسك ياشوقى . إنى متعب .

– فى أى أمر ياصديقى البك ؟

– حـدثنى عن أى شىء يخلو من الكدر . عن زوجتك السابقة مثلا . قل أى شىء يا أخى قال شوقى وقلت وقيل ويقال وسيظل الجميع يقولون ويقال عنهم ولهم حتى تنتصر مملكة الديدان فيستحيل الأنتقام كما يستحيل الحب إلى صمت أبدى . قل ياشوقى.

كان يعمل حينئذ بالقطاع العام . المسافة بين منزله ومصنعه لاتستغرق أكثر من دقائق . حين لايكون مكلفا بمهمة فانه يخرج بعربته خلال مواعيد العمل الرسمية متعللا بأى مبرر للخروج . يطير اليها . تزوجها مبكرا . هى التى علمته كل شىء . تشده إلى الفراش . تقوده وتعلوه فى مذبح الحب . لايستطيع ممارسة السيادة بقية النهار . يسارع إلى الحمام . يرتدى ملابسه ويعود إلى عمله منهكا . فى المساء تقوده من جديد .. وعندما يغمض عينيه لينام فإنه لايستطيع ممارسة السيادة أثناء نومه .

– لماذا طلقتها ؟

– لن تخلو الاجابة من كدر

– كدر كدر .. أريد أتنفس من قاع الحياة .. قل ماتشاء .

كانت له القلب والعبارة . الأشعة والشمس . الحال والمقام . استحوذت على أحلامه فأبحرت به وهو مغمض العينين الى ساحل لا يعرف عنه شيئا ، وحين فتح عينيه رأى رجلا آخر يقودها ويعلوها وسمع لها أصواتا للنشوة – لم يسمعها منها من قبل – جعلته يُعيد النظر فى حياته .

- ألم تفكر لحظة فى الانتقام ؟

- ولماذا أنتقم ؟

- رجولتك . كرامتك . نخوتك .

- لم أفقد من هذه الأشياء شيئا .. هى التى فقدتنى ففقدت كل شئ .

كل الأشياء أشـياء .. فأين لى بثقة من نفسى تضـارع هذه الثقة ؟ .

- كيف ؟

- ضاعت من بعدى . أما أنا فتزوجت على الفور بمن أنجبت لى البنين والبنات . لم أضيع من عمرى يوما واحدا .

ما الذى ينبغى أن أفعله بعد أن أقتص لنفسى من المذنبين ؟ . ان أقصى ما أتمناه ألا أسقط فى النهاية ضحية رابعة لضحاياى الثلاث فترقد جثتى إلى جوار جثثهم . لكن ظمئى إلى القصاص قدر فلماذا لا أعب منه وأرتوى حتى النهاية ؟ .

★ ★ ★

هنيئا لك ياعبد الله يا هوارى فقد بدأ الثوار بالنكسة وانتهوا إلى جحيم من الغلاء ليس له ضابط واندلعت مظاهرات العنف والغليان والحدة . لماذا تعرضين نفسك ياتيريز لمثل هذه الأخطار ؟ . مالك أنت بغير الحب ورحلة العمر والمهام التى أكلفك بها . الحرائق فى كل مكان

تلهب مشاعر الحقد بين الجميع . هاجمت الجماهير أقسام الشرطة وضربت الضباط « الشجعان » وسلبتهم أسلحتهم . افرح ياعبد الله واسخر شامتا فى الرعاع الفقراء الذين كنت تتمنى أن تحكمهم فلم تستطع . أبيض وأسود مرة أخرى فكيف أزعج نفسى بأمور السياسة وأنا عاجز عن فهمها اذ يقول البعض إنها انتفاضة شعبية ويقول السادات إنها انتفاضة « حرامية » . هنيئا لك ياكمال بالجهد الخارق الذى بذلته فى مطاردة المتظاهرين والقبض عليهم بعد أن سيطر الجيش على الموقف . سوف تثبت لأسيادك الجدد أنك خادمهم الأمين . ولسوف ترقى لتسرق وترقى فتنهب . أما أنت ياعثمان فسوف أبدأ بك ، ولكن ياثالوث الغدر والدناءة دعونى أتسلح بسلاحكم أولا فأكدس الأسهم والعقود والسندات والدولارات . يقولون ان بلادى الآن قد صارت غير بلادى من زمان . تحول أهلها الطيبون إلى قوم يتصارعون لأجل المال . ضاق بهم الرزق والمأوى والحقل والمصنع والمستشفى والفن والجامعة والدرسة . يقولون إنهم صاروا يدفنون همومهم فى زوجاتهم فيزداد تعدادهم وتضيق صدورهم فتنفلت أعصابهم ويتنازعون ويتقاتلون لأوهى الأسباب . يقولون إن النساء قد احتجت على ذلك وقلن أن أرحامهن لم تخلق لتكون مقبرة للأحزان وإنما خلقت لتكون حديقة للحب ومزرعة للحياة . وقالت نساء أخريات انهن قبلن بالحجاب يخفى وجوههن وواظبن على الركوع والسجود واغضضن النظر أحيانا وتعامين أحيانا أخرى عن عربدة أزواجهن وفجورهم ماداموا يغرقونهن فى المال والنعيم ومستحدثات الرفاهية الغربية . يقولون إن القوى الآن لايرحم الضعيف ولايزور الجار جاره ولايعود المريض صديقه ولايقوم

الصبية فى الترام للسيدات والشيوخ ولا يقول أحد لأحد شكرا أو من فضلك أو صباح الفل . يقتل البعض فى وضح النهار على مرأى من الجميع ويتهرب الشرطى من أداء مهمته ولايتطوع أحد للشهادة ضد الجانى . النساء يقتلن أزواجهن أحيانا وأبناءهن أحيانا أخرى . شاب يقتل والديه بالرصاص وآخر يهجم على أمه فى الحمام ويمزقها بالسكين رغم توسلاتها إليه .

يقولون إن ظاهرة جديدة صارت تهدد قومى بالكراهية والفناء إذ يتولى البعض من تلقاء نفسه تكفير الآخر بمقاييسه الخاصة ويتطوعون بكثرة الحديث ليلا ونهارا عن الحلال والحرام ويرتدون أزياء غريبة ويتعطرون بعطر نفاذ ولا يتكلمون إلا همسا وقد أدخلوا الموسيقا والمسرح ضمن قائمة المحرمات .

أنا لا أصدق هذا . يشاع بينهم مثل شعبى يقول « معك قرش تساوى قرشا . ليس معك قرش لا تساوى شيئا » سأجمع القروش بالبلايين قبل أن أعود لأحصل على السلاح المناسب لاستئصال الأورام الثلاثة الخبيثة بجسدكم المريض . أنا لست أصدق مايقال عنكم . لا ولن أصدقه لأننى أعرفكم ولأننى – رغم كل شئ – أحبكم .

لم أبك بحرقة كما بكيت اليوم . ربحت فى مضاربة واحدة مايقرب من ربع مليون دولار . اليوم يتملكنى حزن طاغ لاقبل لى به ولا أعرف منبعه الأصلى الذى يصب فى نهور أحزانى العديدة . وحيد مغترب سافر عنه إنتماؤه إلى بعيد . مقهور يعجز من منفاه عن البطش بثالوث الظلم والطغيان . يقتلنى الحنين إلى الأشجار العجوزة الواقفة منذ مئات السنين على ضفتى النيل ، وطفولتى مع تيريز ومجدافين

يبحران معى بنجلاء على شاطئ الميناء الشرقى بالإسكندرية تتفرج على الصيادين والشباك ومراكب الصيد المعمرة . ياله من مخزون لاتنتهى منه أيها العقل الذى أجهدنى بحمل ذكرياته .. حتى تجربتى الجنسية الأولى تأتى بها اليوم إلى من بين دموعى فأقف عاجزا أمام سطوتك . لا أملك إلا أن أهيم معك فى دنيا ماضينا البعيد . نبحث سويا عن مهرب من فيض الأحزان . أتسلل ساعة الغروب مع تيريز بين أشجار حديقة منزلهم القديم . تشدنى إليها سلسلة فولاذية من غموض سحرى . يرتجف جسدى حين ألامسها بنشوة مبهمة يمتزج فيها الخوف من مجهول بالرغبة فى مجهول آخر . حفيف أوراق الشجر بدغدغ حواسنا الخضراء .. يهمس للقلبين الصغيرين بوشوشات مسكرة . حتى رائحة الجو مترعة بالايحاء .. وحين احتضنتها دام بيننا صمت طويل وتبادلنا الأنفاس الساخنة الخائفة المضطربة المتعانقة المتهدجة .. ثم جرى كل منا بعيدا عن الآخر قبل أن نعرف أنه الحب .

الحب هنا بغير حاجة الى حفيف أوراق شجر أو رائحة للكون مترعة بالايحاء والغموض ، فالمواجهة الواضحة والاختصار المفيد هما فلسفة الحياة ، اذ يسأل الفتى فتاته مباشرة ودون حياء :

– هل أستطيع أن أمارس معك الحب ؟

طالما ضحكت من طبيعة المفارقات بين هنا وهناك ، ومن الشىء الذى جاء بى الى هنا لأمضى عمرى فى المقارنة بين هنا وهناك . لقد قلت كثيرا من قبل أن الباب الذى تدفعه ريح المقارنة لا ينفتح إلا على جحيم . رغم ذلك فانى أكاد أغرق الآن فى المقارنة بين عواطفى تجاه تيريز الحاضرة ونجلاء الغائبة من جهة ، وبين عواطفى تجاه فينيتا

وباتريشيا ووسام من جهة أخرى . أقارن وليكن ما يكون . حبيبتى هى تيريز . أول قلب ينفتح له قلبى . لكن الدين قطع علينا الطريق فكيف تتزوج مسيحية من مسلم فى مجتمع تستعبده المواريث ، وان سمحت الشرائع فهل يسمح الأهل المتشددون بتقديسها ؟ .

اعـلموا أيها التعساء أنه لولا ظهور نجـــلاء لكانت كارثة محــققة على دين أهلى ودين أهل تيريز معـــا ، فأنا وهى لم نكن لنعبـأ بهذه المواريث أو نقيم لها وزنا رغم ايماننا بالأديان الثلاثة . كنا على استعداد لمفاجأتكم بجنين يتحرك فى أحشـــائها لتقولوا لنا ماذا أنتم فاعـــلون أمام أمر وقع وانتهى . لكن الدين الذى فرقنـــا هو نفسه الذى أنقذنا بحق حين تعلقنا بثوبى عيسى ومحمد فصرنا أخوين حبيبين بدلا من زوجين ، واحتوى قلبينـــا معا قلب نجلاء الكبـير فحققنا جميعا معجزة « اسلامسيحية » لا يقوى على تصورها شاب فى مثل عمرنا الصغير . وها هى السنوات تمر فتأتى لنا الأقدار باغراء جديد وما أخبثك أيها الزمان . يستشهد سوريال وتغيب نجلاء ولا يبقى على ساحتك الهلامية إلا محمود وتيريز مرة ثانية ... فتصب أحزانى فى نهر جـــديد .

– من يصدق أننى أبكى اليوم بهذه الحرقة ؟

لمن توجه هذا التساؤل أيها الثرى الشـــــاب الأعزل المنبوذ ؟ . لا أحد يهمه هنا أن يصدق أو لا يصدق إنك تبكى أو تضحك أو تهذى . حتى لو مت وتعفنت جثتك فلن يدرى أحد بك سوى أمك . وبالرغم من

ذلك فقد بقى السؤال مطروحاً حتى عرفت اجابته فى صبيحة ذلك اليوم الذى استيقظت فيه لأجد أمى قد ماتت فى صمت .

★★★

.. ويا كمال ، طالما نصحتك درية فى البداية بأن تتق الله وتعيش عيشة أهلك . تشممت المرأة بغريزتهاالتى لا تخيب رائحة المال الحرام . قلت لها ساخرا انها خيرات الله أنعم عليك بها من لجان تصفية الاقطاع ، وان الاقطاعيين لصوص يسرقون مصر منــذ عهد محمد على ، ثم أمعنت فى سخريتك قائلا

– ومن يسرق لصا يغفر الله ذنبه يوم القيامة .

فى بادىء الأمر تمســكت درية بجذورها وأصولها فحذرتك ونبهتك ، لكنك انتصرت فى النهاية فأغويتها . حصيلتك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تفوق حصيلة الأمام الذى صلى بنا اليوم صلاة الغائب على أرواح الشهداء الفلسطينيين .. ولهذا فأنت تعرف جيدا ذلك الحديث الذى يقول ان « النساء ناقصات عقل ودين » ، ولهذا أيضا نجحت فى اقناعها بأن غمرتها فى سيل من أدوات العز والرفاهية والتعالى على سائر البشر حتى سقطت فى شباك النجسة .. وأضفت يا كمال عن جدارة الى مهاراتك المعهودة مهارة من نوع جديد

تمثلت فى افساد ضمير زوجتك وتدمير حياتها ، فلم يعد مثيرا للدهشة فى شىء أن تنقلب درية ابنة حارة « قرافيش » الوديعة من فتاة رقيقة حَيِيّة لا ترفع عينيها عن الأرض الى امرأة شهوانية شديدة النهم الى الحياة ان لم تجد ما تفعله فانها تتسلى بمجلات الجنس الفاضحة التى تجلبها فخامتك من السويد .. أو انها تتفنن فى ابتكار عقاقير عجيبة تصنعها بيدها من الأعشاب والمخدرات والمنشطات والنباتات النادرة حتى تستطيع أن تنتزع منك المتعة وقد بدأت أجراسك تدق منذرة بزوالها ..

ألا تسمح لى من فضلك أن أستعير مقولتك الدينية التى ترقى الى الحكمة عن جزاء الآخرة لمن يسرق لصا ؟ .. ورغم ما بين حالتينا من اختلاف جوهرى فان بى طمعا فى هــذا الغفران الذى ذكرته لزوجتك ، جعلنا الله من بركاتك . لقد صفيت الاقطاع من منازله الى خزانتك ، أما أنا فلن أضع فى خزانتى قرشا من لجنة تصفيتك . ستوقع تنازلا موثقا عن العيادة - قبل أن تطأها قدما ابنك - الى هيئة التأمين الصحى بالاسكندرية ليعالجوا بها عمال وموظفى القطاع العام التعساء . ستوقع تنازلا مماثلا عن صيدلية ابنتك - وتوثقه معى - الى نفس الهيئة الڤيلا ستباع أمامك لأحدى شركات الاستثمار الكبرى . شقة الحراسة ستعود الى الدولة . أما النفائس التى أودعتها الڤيلا والشقة يا جهبذ فسوف تعرض للبيع فى مزاد علنى . كل هذا سيتم خلال أيام معدودة لا تتجاوز عدد أصابع يديك الطويلتين وقدميك

الداعرتين . وأما حصيلة الأموال السائلة جميعها فسوف أهديها نيابة عنك - باسمك - الى خزانة البنك المركزى ، وسوف تكتب تعهدا بعدم أحقيتك فى المطالبة بها أو بأرباحها مستقبلا .

كم يؤسفنى أنه فى الوقت الذى أعلنك فيه بقراراتى - التى سبق أن اتخذتها قبل العودة - يكون الصهاينة قد أنجزوا بنجاح قتل مئات المتظاهرين من عرب الضفة وغزة ، واعتقال آلاف اخرين ، ويكون أقصى ما استطعنا أن نفعله هو اتصال هاتفى من زعيمنا بزعيمهم الحقيقى يرجوه ألا يستخدم حق الفيتو فى الاعتراض على القرار الصادر من مجلس الأمن بادانة الصهاينة .

بالقطع تلك أنباء لا تهمك ، فأنت لا تعرف من هم عرب الضفة ولا من هم الصهاينة ولا يهمك أن تعرف أى يأس هو الذى قاد النساء والشـباب والصبية الى مواجهـة المجنزرات والقنابل بالطوب فى جرأة لم يعرفها تاريخ البشر .. ولكن لأن كل هذه الأمور تهمنى فأنى عدت الى مصـــــر .



عندما عاد اليها موسى كان نبيا وكنت كتلة هلامية مائعة أو لم أكن على الاطـلاق ، وعندما خرج منها كان خائفا وكنت خلية واحدة . « ولقد أوحينا الى موسى أن اسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى ، فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم ، وأضـل فرعون قومه وما هدى » أما عندما خرجت من مصر فقد كنت فأرا ، ولمـا عدت اليهـا صرت آدميا ينتمى الى فصيلة النمور .

– فرصة عمرك للنجـاة بنفسـك وأولادك . نفذ ما أمرتك به والا سلمت لهم ملفك .

– ارحمنى يرحمك الله .

– لا تضيع الوقت فالهى غير الهك . ستسجن وتصادر أموالك ويتشرد أولادك فلا تطول الأرض ولا السماء .

– سأفعل ما تأمر به .

معذرة يا أبى الحبيب . لم أتمكن من قتله بالسوط لأننى لم أكن راغبا فى ذلك . انعم برقادك الوقتى فلقد رحل من أزهق روحك ، أما حسابه الختامى فليس من شأنى . حين خرجت مرغما كان الذعر يملأ قلبى . إلى فلندة توجهت . آخر بلاد الدنيا . لم أكن أعرف مخلوقا خارج مصر سواها : فينيتا فلمان الاسكندينافية .

★★★

منذ ألف عام قال بن فضلان إن الاسكندينافيين أقذر خلق الله ، فهم لا ينظفون أنفسهم بعد الذهاب إلى المرحاض ولا يغسلون أنفسهم

بعد الجنابة أكثر مما تفعل الحمر الشاردة . ان لكل رجل مصطبة يجلس عليها برفقة النساء الجميلات اللواتى يعرضهن للبيع ، وأحيانا يقوم بمضاجعة احداهن أمام صديق له يستمتع بالمشاهدة . بل ان عددا منهم يقوم أحيانا بنفس الفعل فى آن واحد على مرأى ومسمع من كل الحاضرين . أما تقاليد الولائم فتتضمن التراشق بالطعام والضحك الفاجر والصراخ ، ومن المألوف وسط هذه الولائم أن يضاجع نبيل من نبلائهم جارية على مرأى من أتباعه . وعندما يتوفى سيد من كبرائهم فان هذا يعنى بيع ممتلكاته لانفاق ثمنها فى شراء مشروبات قومية وفى أغراض أخري عديدة استعدادا ليوم الحفل الذى تهب فيه احدى الفتيات نفسها للموت فتحرق مع سيدها . وقبل ذلك تظل تلج الخيمة بعد الأخرى ليضاجعها كل من فيها ثم يقول لها بعد ذلك :

– خبرى سيدك أننى ما فعلت هذا الا حبا فيه .

وفى النهاية تأتى عجوز شمطاء تسمى بملاك الموت فتشد الفتاة من شعرها إلى داخل خيمة حيث يتناوب اغتصابها ستة رجال ثم يلقون بها الى جانب جثة سيدها بينما يمسك رجلان بقدميها وآخران بيديها . أما العجوز فتعقد حبلا حول عنق الفتاة ليشد رجلان طرفيه ثم تطعنها بخنجر عريض الشفرة بين أضلعها ويستمر الرجلان فى خنقها حتى تموت . وفى الوقت ذاته يضرب الرجال بعصيهم على تروسهم ليغيبوا صراخ الفتاة حتى لا تخشى الفتيات الأخريات طلب الموت مع أسيادهن فى المستقبل . وفى لمح البصر تصبح الخيمة والسيد والفتاة وكل شىء آخر عاصفة من النيران الملتهبة . وقبل أن تمضى ساعة تكون كل هذه الأشياء قد تحولت جميعا الى رماد تطيره الريح .

ويقول بن فضلان ان كثيرين من هؤلاء القوم قد اقتربوا منه يلمسونه بشىء من الخوف والحذر حتى أخبره أحدهم أنهم يحاولون ازالة لونه الأسمر اعتقادا منهم بأنه قد طلى به جلده . وعندما يمسكون بلص فانهم يقودونه الى شجرة ضخمة ويشدون حبلا قويا حوله ثم يعلقونه ويتركونه فى العراء حتى يتعفن ويسقط لحمه قطعاً متناثرة بفعـل الريح والمطـر .

ولما قال بن فضلان ما قاله قلت لنفسى :

اما أنك تهذى يابن فضلان فيما تقوله عن قوم ڤينيتا فلمان ، واما أن فعـل الأزمنـة على مـدى قرون عشـرة هـو الذى جعلنى أظن بك الهذيان . لقد وصلت الى هنا مفلسا اذ استنزفت آلاف الأميال معظم ما كان معى من مال . لم أكن أدرى ما هو الجنون ان لم يكن ما فعلته هـو الجنون بعينه . حاول مروان مراجعتى قبل الحصول على تذكرة السفر خشية أن يكون عنوان فينيتا قد تغير ، أو أن تكون أسرتها قد انتقلت الى مدينة أخرى ، أو أن تعجز عن استضافتى وايوائى لسبب أو لآخر ، أو أن يكون عزرائيل قد أدى واجبه نحوها فى الزمن المكتوب . لم يكن هناك وقت للاتصال بها بأية وسيلة غير الهاتف . ترددت قليلا ثم حسمت أمرى بألا أتصل بها خشية أن يتبدد أملى فى سماع صوتها فلا أعرف أين أروح أو أجىء . كانت حياتى معلقة على جناح طائرة .. ولتذهب بى الى أى مكان فى العالم بعيدا عن مصر ، ولأكن نعامة وكنت ... واذا بهؤلاء « المتخلفين » يحتضنوننى فى قلوبهم وعيونهم بحنان انسانى لم أتخيل وجوده على الأرض ، فعرفت الله فى مخلوقاته كما لم أعرفه من قبل .

فينيتا تقول انها تحلم . تشهق فى عذوبة . أهذا هو أنت المصرى العربى الأسمر الذى أراسله منذ صباى دون أدنى خاطرة من خيال توحى باحتمال رؤيته ؟ .. تسألنى بأمومة تتجاوز عمرها : كيف جئت ولماذا لم تخبرنى قبل حضورك وكم من الزمن ستبقى بيننا وأهلا وسهلا ومرحبا وأنت ضيفنا وهذا طعام وهذه نقود وهذا مكان لاقامتك ونحن متعاطفون معك من قلوبنا ، وليذهب هذا الـ « أوسمان مارئى » الى الجحيم .

– ولكن مادمت ستبقى معنا فلابد أن نبحث لك فورا عن عمل رائع يا الله فى مخلوقاتك الملونة التى نثرتها على هذه الأرض بذورا للمودة والرحمة . اننى لم أفهم هؤلاء الناس . أهو الثراء الذى يوحِّد بينهم أم أنها الطبيعة القاسية التى لابد من مقاومتها وترويضها بالقوة والمثابرة أم هى أسباب أخرى لن أعرفها ، تلك التى تزرع فى عيونهم الصافية ذلك الحزن المستتر العجيب .

لو عاشت صفية وكبرت وجاءت الى فنلندة ثم جئت اليها لاجئا لما أمكنها أن تمنحنى أكثر مما منحتنى فينيتا من طمأنينة وحب وأمان .

– لا يا « محمود » . صفية هى شقيقتك ، أما أنا فصديقتك .

– أنت لا ينقصك الا الجناحين ، فكيف أكون صديقا لملاك ؟

– لقد عرفت الآن لماذا فشلت فى وطنك ، ولسوف يعلمك الجليد مالم تعلمه لك الشمس .

أعوام ثلاثة مضت على تخرجى ولكن الأرض مازالت تدور حول الشمس من ناحية ، وحول نفسها من ناحية أخرى .. الكلمات التى كانت غريبة على أذنى وكنت أحسب أيامها أن القليل من قليلها

سيضاف الى قاموس حياتى اللغوى بمجرد أن أتخرج وأعمل وأكسب ، لم تزل قابعة فى قلب الأحلام . النادى . البنك . ڤيللا العجمى . عربة مامى . سعر الدولار ... كلما شاءت الظروف أن أمر أمام النادى الكبير بمدينتى أسترجع تلك الكلمات من أفواه الطلبة المقتدرين . ينتابنى شعور بأن هؤلاء الناعمين الذين يرتعون فى لهوهم وينعمون باسترخائهم داخل أسوار النادى وبين حدائقه إنما هم من طينة أخرى غير الطينة التى خلق منها جدى الفرعون الأكبر وجدى القبطى الكبير وجدى العربى الأصيل .

من كان ينتبه إلى الوقار الزائف فى قسمات وجهى فى ذلك الزمان ، وإلى انكباب بصرى فى الأرض أثناء سيرى ، ربما يتصور أننى غارق حتى أذنى فى البحث عن أسرار الحياة والموت أو عن مسئولية كبرى تخصنى تجاه هذا الكون الكبير .. ولكنه لن يتصور أبدا أننى كنت أحلم دائما فيما يشبه الأمنية أو حلم اليقظة بالتقاط ورقة من فئة العشرة جنيهات سقطت بالسهو من صاحبها على الطريق حتى أحل بها مشاكلى .. وكنت أتجنب فى هذا الحلم أن أعثر على حافظة كاملة تحوى ما تحوى من الأوراق المالية ، حتى لا أجد نفسى مضطرا إلى إعادتها إلى صاحبها الذى وضع بطاقة هويته بها .

أما الذهاب إلى البنك فلم يتحقق إلا لمجرد أننى – لسوء حظى أو لحسنه – عملت به ، وليس لسبب آخر يدعونى إلى اقتحام رهبته . كلمات أخرى كانوا يتداولونها حول مغامراتهم الجنسية مع الفتيات بلا حرج ، تجعلنى أظن أننى أعيش فى كوكب آخر ، ورغم الفارق الطبقى الواضح بينى وبينهم إلا أن صداقتى بهم كانت تخلو إلى حد معقول من

المنغصات النفسية . فى البداية كنت أعتقد أن هؤلاء الفتيات هن فتيات النادى أو الشاطئ . لـكنى أصبت بذعر وإحباط شـديدين وحزن أشد حين فوجئت باسم « صفاء » يتردد على لسان أحدهم مقترناً بوقائع تفصيليـة مثيرة ومبتذلة عمـا حدث بينـه وبينهـا فى مـكان معين وزمان محدد .

صفاء ؟ .. أنت أيتها الزميلة الخجولة الصامتة ذات الابتسامة الوديعة والنظرة البريئة ؟ .. أنت يا من أحترم فيك العقل والأنثى وأتمنى لو كنت شقيقتى عوضا عن صفية الراحلة ؟ .

أنت يا صفاء ؟ ... لابد أنه يفترى عليك كذبا ، بل أنه حقير دنىء يدمر سمعتك لسبب لست أعرفه .

ثم يتبين لى أنه لم يكن كاذبا ، وأتأكد بعينى أنه لم يختلق مما رواه شيئا ، فأنطوى على ذاتى حزينا ذاهلا فاقدا بنفسى الثقة كما لو كنت مسئولا عما حدث ... وتفضين بكارتى يا فينيتا .

– أتسمين ما بيننا حبا ؟

– وبماذا يمكن أن يسمى غير ذلك ؟

– نحن نسميه علاقة محرمة .

.. تنفجـر فى الضحـك ، ويهـتز صـدرها البـلورى فى عينى الحائرتين .

– لكن قل لى بصراحة .. ألا تحب هذا الشىء المحرم حقا ؟

– بل أحبه بجنون .

– اذن فلا تخف مادمت لا تضر بأحد . ان الله خلقنا جميعا للحب .

بل إني أخاف الله ، ومن قبل كنت أخاف « أوسمان مارئى » ، ومنذ البداية أخاف الفقر .. والآن أخاف كل الخوف من ذلك المجهول الذى ينتظرنى ببلادكم الجميلة . لا الموسيقا ولا الروايات والشعر استطاعوا من قبل أن ينسونى الخوف . اننى وريثه الوحيد ان لم أكن أنا الخوف ذاته .. فمن ذا الذى بيده أن يجعل منى شيئا آخر غير الخوف ؟ .

آه يا فينيتا يا من ذقت معك طعم العسل فتفتحت عيناى على بعض من حقيقة الدنيا والحياة والموت . هل يدوم بى الخوف وألوذ به الى الأبد ؟ .. ألن يأتى يوم بعد سنين أشترى فيه كمانا لابنتى وأجلس مع زوجة طيبة نأكل « الجيلاتى » على شاطىء بحر الاسكندرية أو نيل القاهرة ؟ . ألا تأتى الأزمنة بهذا اليوم ؟ . ولئن أتت فمن تكون هذه الزوجة بحق السماء ؟ ! .

★★★

كان هذا المطار شاهد عيان على خروجى ، فلم لا يكون شاهدا على خروج من أخرجونى ؟.. ينهنه كالأطفال . درية شاردة فى ذهول . أغمى على كاريمان مرتين . تبكون مصر الآن . لم يبك أحد موت أبى بسـقوط زوجك يا درية . لم يعلم أحد بسـقوط أبى تحت قدمى أبيك يا كاريمان . معذرة أيتها السيدتان البائستان . يجب أن ترحلا مع الجلاد فقد نزعت منه سوطه . الدكتور وجدى ينتظركم جميعا فى أوروبا . توجهوا اليه والله معكم . بسم الله الرحمن الرحيم . جاء دور قاتلك ياصفية . مالك يوم الدين . صحت فى وجه المقرىء .

– اذهب بعيدا . أريد أن أقرأ الفاتحة وحدى . خذ .

إياك نعبد واياك نستعين . المائة مليون الثالثة لن أودعها مقدما هذه المرة . إهدنا الصراط المستقيم .

سأدفع بعد عودتى الثالثة من أرض المطار . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . أنت مطرود من الجنة . التكية . مطرود من مصر . آمين . أين أنت يا مروان ؟ .

– حمدا لله على سلامتك .

قال لى ساخرا دون أن يفارقه الشعور الغامض بالذنب :

– هل أنت راض عنى ومقدر لظروفى أيها المنتقم الجبار ؟

لن أستطيع معك صبرا بعد الآن .. هده ابنة عمك وخطيبتك قد اغتصبت ... وانتحرت .

– سوف يعلمك هذا الملف كيف تكف عن السخرية .

سلمته الملف الثالث . سألنى بالحاح غريب .

– بالله عليك للمرة الثالثة أسألك ، أى شيطان أعد لك هذه الملفات ؟

يا حسرة على الرجال وكل مشكلتك يامروان أن تعرف كيف تفوقت بمفردى على أجهزتك الضخمة . وهل ستصدق يا ترى أن امرأة ذات نهدين كانت العقل المنفذ لكل ما دبرت ، وأن امرأة أخرى من قبلها كانت العقل المفكر لما دبرت لى المقادير من نجاح بمقاييس هذا الزمان ؟ . وماذا لو صدقت أو أنكرت أو استنكرت ؟ .. ليس ذنبى أننى حين بحثت فما وجدت رجالا وانما لم أجد سوي الصمت ، ورغم ذلك فقد استعنت به على اجترار نفسى انتظارا لمجىء زمان ربما لا يجىء . زمان يسود فيه صمت المعرفة ويقل شأن العبارة وتفقد الكلمات

حيثياتها ، فيتحول سكان هذا الكوكب المجنون الرائع الى آلهة للحكمة وينزل اليهم آدم من جديد وتكون السماء غير السماء وأرض مصر غير أرض مصر . لن أعيش هذا العصر فيما أحسب والله أعلم . انه عصـــر النظــرات لا عصر الكلمات . لو عاش مروان هذا العصر فانه سوف يقول لسلوى .

أنا رجل جبان سلبنى مقعد السلطة إرادتى .

وسوف تقول سلوى لتبريز رغم تضاؤل قيمة الكلمات .

– أنا واثقة أن نجلاء قد ماتت .

ولسوف يلتقى عثمان مرعى بكمال عبد الرحيم وعبد الله الهوارى فلن يتبادل أحدهم مع الآخر كلمة واحدة . واحد منهم سوف يطارده البوليس ثم يطلق عليه الرصاص قرب حدود الدولة التى حط بدنسه عليها ، والآخر سوف يموت منكورا فى مستشفى خيرى ميتةً ذليلة ، أما الثالث فسوف يعثرون على جثته فى غابة نائية وقد جمده الصقيع .

وسوف يقول أحد الرواة من زوار القبور انه استمع الى حوار سفلى غامض بين رجل وابنته التى كان يناديها باسم « صفية » لكنه يرفض بشدة أن يصرح لأحد بتفاصيل ما سمعه من حوار خشية من بطش الجن ، فاحذروا هذا الزمان يا مروانيون يا مصريون يا عرب بأن تستعدوا لمواجهته حتى لا يشبهكم كاريكاتوريست بريطانى آخر بالخنازير ، ثم تسقط دعواكم أمام المحاكم البريطانية فيطمئن الكاريكاتوريست الى موقفه ويعود لينقل اليكم احتجاج الخنازير على تشبيهه بها لكم .

★★★

يوم وصلت الضيفة الأمريكية وصل صديق فينيتا . أنا لا أفهم هؤلاء الناس . قالت لى فينيتا وهي تقبل صديقها وتعبث بقفاه .

– حظك من السماء يا محمود . مسز فهمى تستطيع أن تحل مشاكلك .

ما هذا العهر ؟ . تمنحنى جسدها وتقول انه الحب ، ثم ترتمى على صدر هذا البغل أمامى وتلتهم شفتيه بشبق مثير وتحدثنى فى موضوع آخر تاركة الغيرة تنهش صدرى وتشعل بحدائقه الحريق .

– مسز فهمى تشكو دائما من قلة الأيدى العاملة . يمكنك أن تذهب معها إن شئت .

جرس موسيقى يعزف لحنا جميلا للانذار بالطرد . أسمعه فى ذهول . حضر الصديق الغائب فانتهى دورى . صدقت يابن فضلان . عشرة قرون لم تغير من طباعهم شيئا . أسلوب العهر فقط هوالذي تغير بفعل الحضارة . خيل الى أننى لو انتظرت قليلا لضاجعها أمامى كما قال بن فضلان . لكنى لن أنتظر ، فماذا عنك يا مسز فهمى أعاننى الله على فهمكم أيها المهاويس ؟

– يمتلك زوجى مطعما عربيا كبيرا فى نيويورك . ستتقاضى مرتبا كبيرا لو كنت على دراية بالأطعمة الشرقية .

عندما سلخوا الشاة قالت إنها قد ذبحت من قبل ، وعندما ضربوا « الأعور » على عينه قال إنها من الأصل خسرانة ، وعندما حان وقت الرحيل عدت إلى التشكك فى ابن فضلان إذ عوملت أكرم معاملة من فينيتا وأسرتها ومن صديقها البغل بصفة خاصة . أنا لم أفهم هؤلاء

الناس . يبدو أننى سوف أظل أردد هذه العبارة إلى أجل غير محدد .
أما مسز فهمى فقد تكفلت بمصاريفى كاملة كما دبرت لى دخولا مشروعا إلى أرض الثراء والحرية والعنف والرفاهية والعنصرية .. وقبلتنى فينيتا قبلة الوداع . كانت حزينة العينين ، أما أنا فبكيت من عمرى تجربة حيوية لا يمكن أن تنسى .

★★★

من المقابر قادتنى قدماى إلى زقاق بيتنا العتيق . الحال هو الحال . لم يتغير ، بل ازداد سوءا وقذارة . واقع أراه بعينى يؤكد أننى ولدت فى بيت يقع بنهاية هذا الزقاق فى هذا الحى القديم الذى بال عليه التاريخ ثم تبرز . ما زالت الشرفات الخشبية العجوز تطل على البحر بعيونها المنطفئة الذابلة فوق هالات الأزمنة الضاربة إلى الزرقة . ما زال الصيادون يركبون أيامهم فى البحر فيعودون يوما برزق ويوما بالأمل فى اليوم التالى . يتضاءل الموت أمام ديمومتهم الأزلية إذ يتولى الأبناء فالأحفاد زمام المهنة ، وتتغير الدنيا فيتمرد بعضهم على البحر لأنه يمنح ويمنع كيف يشاء . يهربون المخدرات ويبنون العمائر الفجة ويركبون المرسيدس بعقولهم الأبيقيرية الأبيقورية وجلاليبهم البلدية ويصرفون ما تخرجه أمعاؤهم فى آبار طافحة نتنة ومجار متهالكة إلى البحر . أما أنوفهم فقد فقدت مع الزمان حاسة الشم بحكم التعود .. كيف أذهب إلى بيتنا المهجور وأصل إلى بابه قبل أن أقئ أو تزل قدمى فأقع فوق البول والخراء ؟ . كيف أدخله وقد رحل عنه أبى وأمى وصفية وغاب نديم ؟ .. لعل الصراصير والفئران ترتع فيه منذ ستة عشر عاما حين غادرته أمى إلى حيث كنت أقيم كهندى مصرى أمريكى عربى أحمر

يمتلك مالا وفيرا وقلبا حديديا وحظا من السماء . كم كنت أتمنى أن أتمدد على فراشى وأريح جسدى عليه ورأسى على وسادته فأنام بعمق ولا أشعر أننى نائم .

استدرت عائدا إلى الفندق دون أن أجرؤ على الاقتراب من البيت. خيل إلى أننى أمشى على أربع . عجزت عن مواجهة تاريخى فأجلت لقاءه إلى حين . حامت ذبابة حول أذنى بطنينها القاتل فكدت أجن من الغيظ وكان سخطى على بنى قومى شديدا ، لكنى قررت ألا أكتفى به .

★★★

سوف يعلمك الجليد مالم تعلمه لك الشمس . مسز فهمى اسمها روز . أعجبهـــا دين صديقهـــا فأسلمت وتزوجته . أزالت بفطرتها كل ما يمكن أن يوضع من حواجز تفصل ما بين الدين والحب والدنيا والجنس والأصل والوجـــود واللون والموت ، فعاشت معه فى سعادة . الحاج فهمى يتمتع بشهامة رائعة . رنة صوته تشبه رنة صوت أبى . أعطانى محاضرة طويلة حول كيفية التأقلم مع المجتمع الأمريكى . أوضح لى أن الدستور الأمريكى ينص على وجود ثلاثة فروع متساوية ومستقلة للحكومة ، ولكن كلا من هذه الفروع يعتمد إلى حد ما على الفرعين الآخرين ، كما أن هناك تداخلا بين أعمال هذه الفروع التنفيذية والتشريعية والقضائية وبين سلطات الرئيس . قلت له :

– ألا ترى أن طبيعة عملى معك لا تقتضى الإلمام بهذا الكيف من المعلومات ؟

أجابنى بصوت انصهرت فى نبراته فلسفة الغرب وحكمة الشرق.

– لا تغلق باب عقلك أمام أية معلومة فسوف تفيد منها يوما ما .

وفى نهاية المحاضرة ذكرنى بضرورة العودة إلى الصلاة . كان منظر روز وهى ترتدى الطرحة البيضاء وتؤدى شعائر الصلاة يبهرنى ويثير دهشتى وإعجابى . فى نهاية كل أسبوع يدعونى إلى تناول زجاجة واحدة من البيرة معه ولا يزيد عليها . تعجبت لأنه لم يسألنى عن تفاصيل قصتى وأسباب هروبى من مصر . قال إنه تعلم هذه الخصلة من الأمريكان . إذا كنت تريد أن تتكلم فسوف أسمعك ، ولكن ليس من حقى أن أسألك عن خصوصياتك .

– ألا يجوز أن أكون لصا أو مجرما هاربا ؟

– لا يعنينى هذا فى شئ .

– وإذا تسببت لك فى ضرر ؟

– سؤالك محرج ، ولكن هناك البوليس ، والطرد من العمل .

عملت عنده عاما كاملا . فى نهاية العام توطدت صداقة بينى وبين أحد عملائه اليهود من ذوى الأصل اليمنى . أعجب اليهودى بأسلوبى فى معاملة الزبائن . أغرانى بالعمل معه فى تجارة الملابس المستخدمة براتب كبير . تصبب العرق على جبينى وأنا أعرض على فهمى رغبتى فى العمل مع اليهودى . ابتسم فى هدوء وقال :

– هذه حياتك وحدك ، ولك مطلق الحق فى تصريف شئونها .

– ألن تكون غاضبا منى أو ناقما على ؟

– لماذا يا بنى ؟

– لأننى أنكر جميلك وأنت صاحب الفضل .

– إذن فأنا قد فشلت فى تعليمك على مدى عام كامل .

– كيف ؟

– لأنك تنسى دائما ما قلته لك عشرات المرات : « لا تخلط بين عقلك وقلبك » .

سيعلمك الجليد ما لم تعلمه لك الشمس . لا تخلط بين عقلك وقلبك .. وعملت مع « ماتاتيا » عدة أشهر حتى شربت معظم قواعد المهنة . كنت أزور فهمى وروز من حين لآخر وأسعد بقضاء وقت عائلى معهما أشم فيه رائحة بلادى وعبق طعامها . بدأ ماتاتيا يرسلنى إلى بلاد عديدة أتسوق منها الملابس المستخدمة أو حديثة الصنع المعيوبة . أعود بها إلى نيويورك . نجرى عليها الإصلاحات اللازمة ، ثم نبيعها فى حى الزنوج وبعض الأحياء الفقيرة الأخرى . هامش الربح مرتفع للغاية . مكسبى يتضاعف وتزداد عمولتى يوما وراء يوم . صدقت نجلاء فى فكرتها عن تغيير العتبة .

ليتها تعرف أننى قد غيرت الحياة بأكملها لا العتبة فحسب . فهمت من متاتيا كل ما أخفاه عنى من قبل عن أدق أسرار مهنته . علمنى أن كلمة الحظ لا توجد فى قاموسه ، وقال لى أن الحياة الحقيقية ما هى إلا حركة ديناميكية لإبداع متجدد .. وتركت متاتيا .

استأجرت منجرا خاصا فى ضاحية بعيدة . سيعلمك الجليد ما لم تعلمه لك الشمس . لا تخلط بين عقلك وقلبك . الحياة الحقيقية حركة ديناميكية لإبداع متجدد .. استأجرت متجرا ثانيا . بدأت – أخيرا –

أفهم هؤلاء الناس ، ورغم ذلك لم أستطع أن أحذف كلمة الحظ من قاموسى فأنا محظوظ .

تركت تجارة الملابس المستعملة والمعيوبة وعدت إلى نيويورك فافتتحت متجرا ضخما لبيع الملابس الجديدة . نسيت الجليد والشمس والعقل والقلب والحظ وديناميكا الحياة وافتتحت متجرا ثانيا وثالثا ورابعا حتى فوجئت يوما بأننى لست أنا .

قبل أن تدهمنى هذه المفاجأة بعدة أشهر التقيت بباتريشيا . أصلها أرجنتينى لكن أرجنتينيتها لم تصمد طويلا إذ تأمركت وتزوجت من فلسطينى أحبته وعشقته وهامت به دونا عن العالمين . رحل يوم عرفته . لم يتجاوز حديثى معه أكثر من ساعتين . لولا سفيان لغادرت الدنيا بلا أثر ودون مقابل . لم أكن أعرف أن من الأمور العادية فى أمريكا الشمالية أن يقطعُ علىّ الطريق لص مسلح أو مجموعة من اللصوص ليغتصبوا ما معى من مال تحت تهديد السلاح . كومضة من النور مشتعلة ظهر سفيان . فى لمح البصر أشهر مديته الطويلة فى وجه اللصين . لمع نصلها فى الظلام . أصدر إلىّ أمرا حاسما :

– لا تسلمهما الحقيبة .

لم تكن تحوى غير مجموعة من الأوراق والخطابات المتعلقة بأعمالى وبعض السندات . لو لم يظهر سفيان لاغتصبا الحقيبة ومعها ساعتى وكل ما بجيبى من دولارات وسنتات ، أما حياتى فقد كانت فى تلك اللحظة على كف عفريت . كان ذعرى لا يصدق لاحتمال أن يقضى على بهذه الكيفية الحقيرة ومن أجل حقيبة تخلو من دولار واحد . غير

أننى فى لحظة من لحظات التوقد الذهنى المثير الذى تحركه أخطار الموت تمكنت من السيطرة على هاجس ألح على إلحاحا عنيفا بأن عثمان مرعى قابع خلف هذا الهجوم الوحشى على إنسان أعزل يسير وحده مطمئنا فى الظلام . إن لم أجد الأمان فى مصر الفقيرة وفى أمريكا الفاحشـــة الثراء فأين أجــده على هــذه الــكرة البيضاوية العنيدة ؟ .. لو تمكن منى هذان الوغدان فلا معنى للشعور بالغربة والحنين إلى الوطن الظالم ، ولا جدوى من رفاهية الشعور بالوحدة والحاجة إلى أنيسة تبعث الحياة فى حياتى ، ولا فائدة من حظ أو طموح أو عمل أو ديناميكية أو استاتيكية أو رغبة فى الثراء .. كل هذا فى جانب ، وفى الجانب الآخر تضيع أمنيتى وتذوى رغبتى الحارقة فى استئصال الورم السرطانى الخبيث ذى الرؤوس الثلاثة .

بخفة بهلوان راقص أصاب سفيان أحدهما فى ذراعه والآخر فى قبضة يده حين انتحيت جانبا عن المعركة لائذا بأمل جنونى فى مواصلة الحياة بينما لاذ اللصان بالفرار .

سفيان كالحلم ظهر واختفى ولكنى لن أنساه ما حييت . دعوته لتناول القهوة بمسكني . لم يكن أحد بحاجة لأن يقول للآخر أنه يعرفه منذ زمن طويل ، فقد جمعت بيننا رابطة أقوى من الدين واللغة والقومية فى تلك الليلة الباردة الدافئة .

حدثنى سفيان عن طفله الوحيد « محمود » من زوجته باتريشيا . أذهلنى كم يجن بحبه كما لو كان الرجل الوحيد على هذه الأرض الذى أنجب طفلا . قال أن الولد محمود – الذى لم يتجاوز العاشرة إلا بقليل – يعد من عبــاقرة أمريكا القلائل فهــو الأول فى الدراسة على جميــع

الولايات ، وهو القادر على عزف العديد من السيمفونيات على البيانو ، وهو الذى اختطفه الأمريكان من أحضان أبويه ووضعوه فى مدرسة خاصة تنفق عليها الحكومة تحت حراسة مشددة .

رأيت أسداً يزأر لأول مرة فى حياتى حين قال :

– كان البديل أن أحصل على الجنسية الأمريكية ولكنى لم أستطع .

– كيف ؟

– لا تسألنى كيف وقد شربت قهوتك يامصرى .. ألا تعرف كيف ؟

شعرت بالخجل من نفسى وتذكرت أبى وأمى وصفية ونجلاء وسوريال ومعسكرات اللاجئين الفلسطينيين . خيروه بين الجنسية الأمريكية – التى يتقاتل عليها الآخرون – وبين مغادرته البلاد دون ابنه . لم تفلح مقاومته أمام قرارهم الحاسم بمنع العبقرى الصغير من مغادرة البلاد مع أبيه . قالت باتريشيا :

– يسمحون لى بزيارة محمود مرة كل أسبوع ويعاملونه معاملة الملوك .

سألتها دون أن أصدق نفسى أو أصدقها :

– ألا تعرفين أين ذهب سفيان أو متى يعود ؟

– ليتنى كنت أعرف .

– ولماذا لم تفكرى فى الرحيل معه ؟

– وهل أترك « محمود » ؟

يا إلهى . ما أصعب هذه الحياة وما أقساها .. حين زأر الأسد الجريح كان يردد بمرارة :

– هل تتصور أن ابنى لا يتكلم العربية ؟

لم تقل باتريشيا كلمة واحدة توحى بمجرد استيائها من انضمام سفيان إلى جماعة سياسية فلسطينية تنتمى إلى العمل الفدائى خارج الأراضى المحتلة . تذكره فى حديثها قائلة « سفيانى » أحيانا و« بطلى» أحيانا أخرى . تتخلل انجليزيتها البسيطة كلمات عربية كثيرة تعلمتها منه وأحبتها كما أحبته . دمعت عيناها وهى تقول فى انكسار حزين :

– كنت أريد أن أرحل معه . أتعرف هذا ؟

– قلت لى أن ...

– نعم . محمود . لكن « سفيان » هو الذى أمرنى بالبقاء لأجله وقال ربما يعود .. ربما .

لم أجد صفية فى فينيتا فلمان كما تمنيت قبل أن أنام فى حضنها الاسكندنافى المثير ، فهل أجدها فى باتريشيا الأرجنتينية وأبقى معها وأعلم محمود اللغة العربية مرة كل أسبوع ؟

★★★

منذ تركت الحاج فهمى وباعدت بينى وبينه الأميال ، استأجرت شقة فى مسكن عام قريب من منطقة ماتاتيا التجارية . لم أكن بحاجة إلى ما يزيد على ضروريات المعيشة بالشقة وكانت متوافرة . بدأت الطمأنينة تتسرب إلى نفسى فى تدرج معقول . لم أعد الآن بحاجة إلى

عون أحد . بيدى أن أبدأ الرحلة . لو عملت أكثر فسوف أربح أكثر . تخليت عن نكتة الشعور بالغربة والحنين إلى أرض الوطن . قلت إنها أرض الله فى أى مكان وعملت بحماس شديد . علاقاتى بالجيران كانت حميدة . يبتسمون لى فى ود . للابتسامة معيار لا تتجاوزه دون مبرر . ربما كان لها طول وعرض وارتفاع وكثافة . المصرى راح . المصرى جاء . هى إز أجود مان . نعم أنا رجل طيب وفى حالى كما يقولون . ولكن لم فعلوا ذلك ؟ .

تعددت لقاءاتى بباتريشيا وتبادلنا الزيارات الودية البريئة من كل غرض ، وبدأ محمود ينطق كلمات عربية عديدة ويكون جملا صحيحة من خلال لقائى الأسبوعى معه . كان إعجابى بشهامة باتريشيا يتزايد وكان ميلها نحوى يتصاعد بوضوح حتى أنها دعتنى يوما لقضاء أمسية بمنزلها فقبلت .

عاودنى ليلتها ذلك الارتباك الشرقى المضحك الذى تختلط فيه العاطفة بالعقل بالخوف بالأوهام بالرغبة . لم أفهم فهما جيدا حقيقة ما كانت ترمى إليه بتلك الدعوة ، غير أننى التزمت جانب الحذر فى النهاية واستبعدت من خاطرى كل المشاعر التى قد تتجاوز حدود البراءة . لم أنس هذه المرة أن أفكر بعقلية هؤلاء القوم حين تجمعنى بهم عاطفة ، ولهذا فلم أحمل دعوتها فوق ما قد تحتمل وذهبت إليها وبيدى هدية مناسبة .. كان ظني صحيحا حين قالت :

– أنت صديق شهم يا محمود .

فسألتها بخبث صريح لم أحاول إخفاءه فى ثنايا ابتسامتى العريضة :

– من أين لك بهذه الثقة يا أم محمود ؟

ضحكت لمناداتى لها بهذا اللقب العربى الذى ينادون فيه الأمهات بأسماء أبنائهن وقالت بمودة :

– أنت لم تنكر جميل سفيانى ولم تأت بتصرف واحد غير متحضر .

تخدرت أعصابى قليلا وقد استنامت إلى هذا المديح الأنثوى الناعم فقلت دون أن أدرى :

– وماذا أيضا ؟

– أنت شرقى حقيقى .. العاطفة دينك .

وقبلتنى على جبينى .

عندما غادرت بيتها كانت ترن فى أذنى كلماتها عن المستقبل .. سوف أهب حياتى لولدى على عكس ما تفعل الأمهات الأمريكيات فحياتهن الخاصة مقدسة لا ينبغى أن تجور عليها حياة الأبناء . سوف لا تضمنى أحضان رجل آخر غير سفيانى حتى يعود . لن أتزوج برجل غيره إلا إذا قتلوه .. هكذا كان منطقها واضحا يفصل فكرها عن شعورها ليشق كل منهما مجراه فى أمان .

ولما فتحت باب شقتى هالنى ما رأيت . النقود لم تكن فى مكانها ولكنها لم تنقص دولارا واحدا . أما محتويات الشقة فكانت تهيم فى فوضى لا مثيل لها . إذن لم تكن المسألة محاولة للسطو . لقد فتشوا غرفتى تفتيشا دقيقا .. لماذا فعلوا ذلك ؟ ..

أشعلت سيجارة . فكرت فى ذلك النوع المرهق من المتاعب

التى لا قبل لى بها . بعد أسبوع كنت أسكن فى شقة أخرى ولم أر باتريشيا بعد ذلك .

قلت يوما لنفسى وقد هاجمنى الشعور بالوحدة من جديد :

– أما كانت باتريشيا تصلح زوجة لك أيها الغبى ؟

فى ذلك اليوم اتصلت برقيا بتيريز وشوقى وكلفتهما بإحضار أمى لتقيم معى وتكلمنى عن أبى وعن صفية وعن مصر .

★★★

صليل أجراس عربة الإسعاف يرن فى أذنى وأرتجف . صفية ممددة على الفراش . لهفة أمى وجزعها يصيبان أعوامى الثمانية بالخوف من مواصلة الحياة . أبى مكوم على الأرض بلا حراك . يصعد الرجال ويتعالى الصراخ . اثنان يحملان النقالة . يسأل أحدهما بصوت مقبور :

– أين المريضة ؟

– نفذ أمر الله .

ويصيح مروان :

– أصابته نوبة قلبية فسقط ، لكن أنفاسه ما زالت تتردد .

يحملانه على النقالة بدلا من صفية فأسأل ودموعى على خدين بلا تجاعيد :

– هل جاءوا يأخذون صفية أم أبى ؟

ويهرول الرجلان بحملهما إلى عربة الإسعاف بصحبة مروان .. وأبقى وسط عويل النساء فأنمووأكبر ويشيب شعر رأسى .

★★★

عرفت الطريق إلى بيوت سمسرة الأوراق المالية والبضائع . لم يعد هناك ما أخشاه . تحول قلبى إلى قطعة صماء من الفولاذ واستحال صـــدرى إلى قلعة حصينة تنطوى على أحزان مؤجلة وأسرار لا معنى ولا زمان ولا مكان للبوح بها . أصبح المعنى فى بطن « ميريل لينش » للسمسرة ، والزمان عند « إيى . إف . هاتون » لنفس الغرض ، والمكان فى بيت « هايدن ستون » . أما الأسرار فهى الأسهم والسندات والكاكاو والبترول والبن والسكر والذهب والدولار والاسترلينى والبورصة وما أدراك ما البورصة أيتها الأحزان المؤجلة ، فالمليونير المجنون تعلم فنون المضاربة فى الهواء وعلى الهواء وبدأ يتجاوز أول مليون إلى المليون الثانية والثالثة فتحول إلى خرتيت آدمى صعب الحركة . ماذا أفعل إذن بديناميكية متاتيا وملوخية أمى التى تركتنى قبل أن تأكلها معى ؟ ..

أعرف ماذا أفعل . أشترى .. اشترت أمريكا من أسبانيا ولاية فلوريدا . أبيع .. باعت روسيا لأمريكا ولاية ألاسكا . أشترى وأبيع . أربح . أربح . أربح . لا يمكننى أن أسقـط كلمـة الحظ من قامـوسى يا متاتيا . لماذا لم تكلمنى مرة واحدة عن الحرب بين العرب وإسرائيل ؟ .. لماذا لم تشر من قريب أو بعيد إلى حرب يونية ١٩٦٧ أو حرب أكتوبر ١٩٧٣ ؟ .. هزمتمونا فهزمناكم وفى الحالتين لم تتوقف تجارة الملابس المستعملة وغير المستعملة كما استمرت الشمس فى شروقها من الشرق وغروبها فى الغرب ، ولم يتوقف الرجال عن مضاجعة نسائهم فى كل

أرجاء الدنيا ، ولكنك لا تعرف يا متاتيا أننى أعرف الكثير عن عدائك للعرب وعن تبرعاتك للمؤسسات الصهيونية المتطرفة . ولا تعرف أننى يوم نجح السادات فى الإيقاع بكم فى شركه والعبور بقواته إليكم عبر قناة السويس ، كنت أنظر إلى وجه جولدا مائير متفرسا فى معالم المأساة المتجسدة عليه ، حين تذكرت نصيحة الأستاذ وليم مدرس اللغة الانجليزية فى مرحلة دراستى الثانوية إذ قال لنا يوما بحماس مثير للضحك :

– كلما خيل إليك أنك الذكى الوحيد ، يجب أن تعرف على الفور أنك حمار .

اليوم أيضا أتذكر الأستاذ وليم وأرى مقولته مطابقة تمام التطابق مع سلوككم تجاهنا قبل حرب العبور . ولكن مالى أنا الآن بهذا كله وقد حدث ما حدث وانتهى أمره . أنا لا أفهم فى السياسة . شركة سومطره بتروليم هى الآن أكثر أهمية . من الذى يقول ذلك ؟ . أنا محمود أبو النجا ؟ . نعم . أشترى عشرة آلاف سهم وأطبق قاعدة جدول الضرب التى تعلمتها فى المرحلة الابتدائية مثلما يطبقها أوناسيس تماما فما الفرق بين عقلى وعقله وكلاهما من صنع خالق واحد ؟ . سعر السهم الحالى يساوى خمسة عشر دولارا . إجمالى سعر الأسهم يساوى مائة وخمسون ألف دولار . حصة بيت السمسرة تمثل نصف القيمة أى خمسة وسبعون ألف دولار . يتقاضى ريجان ما يساوى خمسة وسبعين ألف جنيه مصرى شهريا مشتملة راتبه الأساسى وبدلات المصروفات ومخصصات السفر والحفلات الرسمية ويعمل رئيسا للدولة التى أوتنى دون أن تدرى . يرتفع سعر السهم خلال عام ونصف عام إلى مائة

وخمسين دولارا فأبيع الأسهم وأربح بلا جهد مليونا وأربعمائة وخمسة وعشرين ألفا من الدولارات . اشتريت البترول وبعته دون أن أراه أو أشم رائحته . أصبح النصب فى عالمنا مشروعا وكريما . وما دام الأمر كذلك فكن مستعدا يابن الهوارى لقراءة ملفك .

★★★

– قل لى يا شوقى . ماذا تفعل لو أتيت مليونا من الجنيهات ؟

– ماذا أفعل بماذا يا صديقى ؟

– بالمليون .

– لست أعرف .

– من الضرورى أنك ستفعل شيئا بحياتك .

– لن أستطيع أن أفعل بها . هى التى ستفعل بى . كزوجتى الأولى . أما أنا فسوف أرتبك تماما .

وسألت نفسى فى تعجب :

– لماذا أشعر بالارتباك ؟

★★★

- ٣ -

هل أعيش حقا فى قلب هذا العالم المتكامل من الجمال الملون ؟ .
هل أنا الذى يمتلك هذا المنزل الرائع الذى يطل على أبدع تجليات الكون فى طبيعته الساحرة ؟ . تحيط بناظرى تلال وسهول . غابات وبحيرات . بقع لونية خضراء وبيضاء وحمراء وذهبية وقرمزية . الخصوبة تحتضن أشجار الصنوبر وتطوق الأرض بما عليها . الكون بأسره يتنفس سعادة ويفيض على نفسى بسكينة لم أعرفها من قبل . هل أنا الذى يمتلك كل هذه الأسهم والسندات والأرصدة المالية ؟ . ماذا تعنى السعادة إن لم أكن سعيدا بما توصلت إليه حتى الآن ؟ . إن قلبى يدق طربا بأنغام موسيقا قدسية تنبعث فى كيانى فأغنى معها بشجاعة نشيد الأبدية . ولكن .. ماذا بعد ؟ إننى أكتشف عقب كل انتصار أن النهاية لم تأت بعد وأن هناك الجديد مما ينبغى أن يتحقق لا من أجل المزيد من الانتصارات فحسب ، ولكن من أجل الاقتراب من نهاية غامضة تشدنى إليها من بعد سحيق . ثم أكتشف فى لحظات الاسترخاء والتأمل أننى أصبحت فى حالة توحد مع مخلوقات هذا الكون . أذوب فى حياة النباتات المحيطة بى وأعيش لحظات نموها المادى والعاطفى .أرقب النوارس تحوم فوق الجزر الرمادية المتناثرة بين كتل من البياض الشاهق من الأنهار والبحيرات المتجمدة . أنتقى منها نورسا بعينه وأسأله متوسلا :

– هل أنت ذاهب إلى مصر يا أخى أم أنك قادم منها ؟

وحين تنتشر أنفاس الربيع حاملة معها رائحة الخصوبة الندية فإن عالم البياض المتجمد بأنهاره وبحيراته وأسقف بيوته يبدأ فى الانهيار الجميل ليحل محله اللون الأخضر فى درجاته المتعددة ... ورغم هذا كله ففى القلب وحشة وحنين . وأسأل نفسى يوما :

– ألا تكتمل السعادة أبداً لإنسان ؟

وأسألها يوما آخر :

– هل يشعر بى أحد لو مت يوما فى هذا المكان ؟

وأتحرر أياما أخرى من قيود النفس وضوابط العقل الواعى فأنطلق بلا حدود مستكشفا ذلك التجمع الإنساني المثير على هذه البقعة من كوكب الأرض اللفاف ، فالجمال يقابله العنف والقسوة ، والنظام تقابله الفوضى والجريمة حتى ليكاد يكون التناقض هو القانون الأولَ الذى يحكم طبيعة هؤلاء المهاجرين الأشداء الذين أنشأوا المجتمع الأمريكى . انصهرت فى مجون صالات الديسكو . فى دورات المياه الأنيقة كنت أتأمل فى المرايا انتفاخ وجهى من أثر الخمر وأتساءل غير مصدق هل أنا هو الذى يبول الآن فى هذه الأرض ؟ . شاهدت مصارعة السيدات العنيفة بلا مشدات للصدر وسط صياح المشاهدين وضحكاتهم الصارخة وسعادتهم التى تنطلق إلى آفاق حرة لا يحدها حد . أخذنى العجب من تلك المطاعم التى تقدم لروادها طعاما خاصا من ديدان الأرض والبحر يأكلونها بشراهة ، والمخابز « الشبقية » التى تقدم الخبز والحلوى مصنوعة على شكل الأعضاء الجنسية للرجل ، حيث

تتناولها النساء بلذة طبيعية دون علامة من علامات الحياء أو الخجل . أن حرية هؤلاء القوم تثيرني . تذهلنى . شاهدت فنادق خاصة يمكن لنزلائها أن يصطحبوا معهم الخيول والقرود والكلاب حيث يحجزون لهم غرفا خاصة بالفندق وتقدم لهم وجبات الطعام الذى يفضلونه .

لقد أسديت لى معروفا لن أنساه يا عثمان ، فلولاك لما شاهدت عيناى تلك الأعاجيب يا سليل الانهزام . حرية الأديان هنا لا قيد عليها يا كمال . لكن لأنك عبد ذليل فقد صفعت بسوط أسيادك حرية أبى فى عقيدته بينما يعلن هنا رجل يدعى جوناثان باركر الثالث دينا جديدا فيعتنق دينه من اعتنق ويسخر منه من سخر ولا يعبأ به من لم يهمه الأمر .

يولمنى أحيانا ألاّ أستطيع نسيان الأنذال الثلاثة ، ويسعدنى أحيانا أخرى أن تأبى ذاكرتى ذلك النسيان . لقد ارتبطت متعتى بما أشاهد هنا من إثارة وغرائب ارتباطا شرطيا وثيقا بأطياف عثمان وكمال وعبد الله . لم يصل إحساسى بالسعادة إلى ذروته يوما - على مدى رحلة استكشافى الطويلة لأسرار هذا المجتمع - دون أن أذكر ذلك الثلاثى الكريه . كأن نسياني لهم سيفاً مسلطاً على رقبتى يسلبنى لذة المشاهدة ومتعة التأمل وحلاوة المعرفة ، أو كأن اللذة والمتعة والحلاوة كانوا جميعا بمثابة ما أستحق من مكافأة نظير هذا التذكر . حتى فى نوادى العراة ومستعمراتها العامة - غير المخصصة للأعضاء - تذكرت عبد الله الهوارى . لم أصدق فى بادئ الأمر أن تنحدر العلاقات الجنسية الآدمية الراقية إلى هذا الدرك الحيوانى المهين .. إذ يدخل المستعمرة أفراد من سائر الطبقات يأكلون ويشربون ويمارسون الجنس

دون سابق معرفة بأحدهم الآخروفى صورة لا علاقة لها بما يحدث فى بيوت الدعارة العلنية . إنها حرية الجنس - كما يسمونها - فى أرقى صورها . أهلا بك يابن فضلان ضيفا على هذا العالم الذى لم تشهده والذى لم يختلف فى مضمونه كثيرا عن ذلك العالم الذى رويت لنا أعاجيبه . أنظر معى وتعجب من تضافر الكبت الجنسى مع الاستعلاء الطبقى ودناءة النفس حين اعتدى عبد الله على صفية . أنظر معى يابن فضلان وتعجب كيفما يحلو لك العجب من المدارس الأمريكية المتخصصة فى تدريب النساء على فن الخلع والتعرية والاستثارة الجنسية لأزواجهن ، وأعلم أن هناك حصة مقررة ضمن المنهج للتدريب على كيفية البكاء استدرارا لفحولة الرجل . حقيقة يا أخى أقولها لك : أنا لم أفهم هؤلاء الناس . ثراء فاحش فى إتجاه وفقر مدقع فى إتجاه آخر . حياة قصور وحياة تحت الأنفاق يأكلون فيها السحالى والفئران . عبادة للأسلحة وتدريب ملح للأطفال على إقتنائها وللكبار على إستخدامها . إنى أعيش يابن فضلان فى دولة تتمتع بأعلى إجرام فى العالم . ترى أين سفيان الآن وأين باتريشيا ؟ .

★ ★ ★

اليوم أشعر بحاجة جنونية لرؤية أمى . لابد أن تحضر .

★ ★ ★

فى غياب الوطن أجتر غربتى ، وفى غياب الحبيبة أكل وحدتى وتأكلنى فنتآكل جميعا فى صمت أقسى من الموت .. وتعجز العقارات والسندات والأسهم والدولارات حتى لحظتى هذه عن الصمود أمام فيضان الخوف الأزلى من الفقر ، وألتمس العذر لنديم فأزيد منها

وأستزيد ورائحة أبى قير لاتفارق أنفى وسعادتى حقيقية لكنها زائفة ، موجودة ومنعدمة . تتأرجح فى ضميرى بين الشك واليقين .. ولأن رائحة التقيحــات والأورام والقاذورات قد فاحت فعــاث المخـــربون فى الأرض « التكية » فسادا وخلا لهم الجو من الرجال ، فإن من طردونى أصبحوا أصحاب الدار .. وهذه ليست نهاية عادلة . تعالى ياأمى . قولى لى كلاما عن أبى وكلاما عن صفية . أريد إن أعرف تاريخى فلا حياة لرجل بلا تاريخ .. وسوف نرى جميعا كيف ينبغى أن تكون النهاية العادلة .

★ ★ ★

جــاءتنى اليوم أمى من مصر بعد أربع سنوات من خروجى منها . أدركت اليوم معنى أن يعانق إنسان قلبه ويقبل روحه وينظر إلى نفسه بفرحة أقوى من الوجود كله . أود لو أعود إلى رحمها من جديد ثم نعود معا إلى لحظة البدء القدسية حيث لامكان ولازمان . ننبثق معا من السديم فى روح مجردة ترقص على الموج وتفرك بين يديها ريح الشمال فتصير إلى حمامة تحط على الموج لتضع بيضتها الكونية فتكون منها الأطفال والشموس والأنهار والجبال والنجوم . لأكون منها وتكون منى من جديد ، فهذا الكون لم يخلق للعذاب والألم وإنما للمسرة والحبور . والحياة لاتعنى لى شيئا فى وحدتى بعيدا عن أمى . لقد أخرجتنى من نفسها وأخرجتها من نفسى . هاهى تعود الىّ فألامس

جلدها وأشم رائحة حنانها وأضغط بصدرى على صدرها .. من أبى قير إلى نيويورك ؟ .. ما أصعب فهم هـذه الحياة . ما أسخفها ما أروعها ما أحلاها .

– حمـــدا لله على سلامتك يا أمى . لقـــد جئت بالنور إلى حيـــاتى .

– أوحشـــتنى يانـــور عينى . كنت أخشى المـــوت قبل رؤيتـــك .

معذرة ياأهل الصقيع فتلك كلمات لا تعرفونها ، لايعادل دفؤها ماتحرقونه من بترول للشعور بالدفء منذ قامت حضارتكم وحتى يوم تبعثون .. وأهـلا بك يا أمى واحكى لى عن مصر وسورية ولبنان وفلسطين . تكلمى بالعربية التى تتحرق أذناى شوقا لسماعها ويهيم لسانى عشقا فى النطق بها . حدثينى عن مروان عن تيريز عن نجلاء . أغمرينى برائحة بلادى وصفية وأنفاس أبى وعبق الشرق الساحر . أنت مثلى لاتفهمين فى السياسة ولكنك – رغم همومك – تتحدثين عنها بفطرتك خير الحديث ، وأسألك :

– كيف مات عبد الناصر ؟

– كما يموت البشر .

– يقولون هنا إنه مات مسموما .

هل تتصورين معنى أن تعيشى معى بين هؤلاء القوم زمنا غير مســـمى ؟ .. أما زال أبو قيـــر غارقا فى مجـــارى الصـــرف غير

الصـــحى ؟.. تحبين أرضـــك يا أمي وتبكين فراق الفقر والقذارة . أقسم بك أنني أريد أن أبكي معك هذه الأشياء ، لكن مأساتي أنني لم أعد أســـتطيع البكاء . سوف نعود يوما إلى أحـــبائنا يا أمي . إني أعدك بذلك .

- هل حدث مكروه لمروان بسببي ؟

- لقد مرت الأزمة بخير . منـــه لله عثمـــان مرعى . لمـــاذا فعل بك ما فعـــل ؟

- هذا ماسوف أعرفه يا أمي بإذن الله .

- متى وكيف ؟

- لست أعرف ، لكني سأعرف .

وقد حكى لها مروان كل شئ ....

- وماذا قالت نجلاء ؟

- لم تقل شيئا .. لكنها بكت بحرقة .

- وكيف إختفت وأين ؟

- لم يعثر لها أحد على أثر . لماذا لم تكتب لها يابني ؟

لاتسأليني كثيرا يا أمي فلدى من الأسئلة أنهار لاتجف . كيف أكتب لنجلاء وماذا أقول ؟ ..

إن حبي لها لايعرف الذات المنفصلة ، فهو التوحد والبقاء والفناء معا . أن أكتب لها فهذا يعني إستلاب حريتها وأنا لا أحب العبودية

لمخلوق فكيف أرتضيها لمحبوبتى ؟ .

- ماذا تعمل هنا يامحمود ؟

- أعمل بالتجارة .

تنظر إلى بيتى الأمريكى الحالم بعينين أبيقيرتين متسائلتين . تحيرها معالم اليسر الجلية . لم تر فى حياتها بيتا جميلا لأنها لم تعرف كيف تكون البيوت خارج نطاق أبى قير . تريد أن تسألنى لكن الحياء يمنعها .

- هل حصلت على هذا المال من حلال ؟

لم تسألنى بالقول وإنما بالصمت سألتنى فأجبتها بهدوء .

- لاتخافى ياأم محمود فأنا صنيع تربيتك .

- رحم الله أباك . كان يتنبأ لك دائما بمستقبل مشرق .

تركتنى صغيرا ياأبا النجا قبل أن أستوعب القليل عن معنى الموت وأفهمه .هأنا لا أفهمه تماما حتى الآن . تبكيك أمى بحزن غير عادى كلما جاء ذكرك . أهو بعد المسافة بينها وبين مقابر أبى قير القابعة بين أحضان الخليج أم أنه شئ آخر ؟ . تكلمى يا أمى .

وتكلمت ...

★ ★ ★

قالت :

أغدقت سلوى عليّ من فيض أصالتها وجميل عطائها ، أما مروان فكان يستبشر برؤيتي كل صباح ومساء ويقول إنني أمه الثانية . غمراني بالحب حتى بت عاجزة عن تحمله . كثيرا ماكنت أفلت من حصارهما المحكم من حولي وألوذ ببيتي الخاوي فلا يلبثان أن يحضرا على الفور ويلحّان عليّ في العودة ، وأمام عنادي يستسلمان بشرط أن يبيت أحدهما معي . لكني كنت أميل كثيرا الى الوحدة وأعشق التأمل في حوائط الحجرات وأسقفها وصمتها الذي لا يبدده إلا ترتيل آيات الله من محطة اذاعة القرآن الكريم . ولكثرة النظر الى هذه الجدران وقعت بينها وبين عيني ألفة فحفظت مواقع الحفر فيها والثقوب وأماكن الصور التذكارية القديمة المعلقة عليها ، ورأيت أزمنة قد توقفت داخل أطرها الخشبية التي نخرها السوس فبليت كما بليت عظام أصحابها الراحلين . وتساءلت هل تكتب لي الحياة حتى أراك يا محمود ، وهل تظل الأيام على موتها ليحيي الزمان الفاصل بين موتي وقرة عيني ؟.. ورأيت يوما أن أعيد طلاء هذه الجدران تيمنا بقرب رؤيتك .. وحين حضر النقاش ومعه أدواته لاحظت أنه يتوقف طويلا أمام لافتة الباب المكتوب عليها اسم أبيك . سألته عن سر وقفته التي طالت . قال في أسى شديد يسألني :

– أهذه حقا شقة « الشهيد » أبو النجا الفوانيسي ؟

– هو منزلة حقا . لكن ماذا تقصد بقولك إنه شهيد ؟

– رحمه الله .. لقد مات شهيدا بيد غادرة لا تعرف الرحمة .

– ماذا تقول ؟.. أنا أعرف أنه مات مريضا في المعتقل لا في الحرب .

رفع الرجل سترته فجأة وبلا تردد ، ثم استدار بظهره وقد أثار فزعي وارتيابي في سلامة قواه العقلية .

– معذرة .. اني أعتبرك شقيقتي أو زوجة أخي .. أنظري علامات السوط .

إقشعر بدني لما رأيت .. شبكة معقدة من آثار جروح اندملت منذ زمان طويل .

– قتله الملعون أمامي بالكرباج .

★★★

صرخت كذئب جريح ..

– هل علم مروان بهذا ؟

– بمجرد انصراف الرجل ذهبت إلى مروان ورويت له ما سمعت .

ابتلعت أنفاسي خشية أن يدركني الموت قبل أن أسألها :

– وماذا حدث ؟.. ماذا فعل ؟

– لم يصدق ما قاله النقاش واتهمه بالمبالغة والافتراء .

– ألم يواجهه ؟

– في اليوم التالي لم يعد النقاش .

أهكذا تسفر الثورة عن وجهها الانقلابي القبيح فتنطلق الى الأمام وهي تجري الى الوراء في الوقت نفسه ؟..

– كيف ؟

– لا أعرف .. وعندما ذهبت الى محله قيل لي أنه سافر الى دولة عربية .

- وأنت بإحساسك لا بعقلك ، هل صدقت رواية هذا الرجل عن أبى ؟

قالت باطمئنان بلغ من اليأس ذروته :

- لقد صدقته يا بنى حتى من قبل أن أراه .

قتلوك يا أبى وامتنع الرجال عن رجولتهم فامتنعت عنهم هى الأخرى .

- هل ذكر لك النقاش اسم القاتل ؟

- كمال عبد الرحيم .

أينما كنت فلسوف أعثر عليك .

★★★

على شاشة التلفزيون الأمريكى شاهدت المصريين يأسرون قائدا عسكريا اسرائيليا كبيرا اسمه عساف ياجورى .. رأيت الجنود الاسرائيليين يقادون الى معسكرات الأسرى .. تذكرت ذلك الفيلم اللعين الذى يصور ذل المصريين فى حرب يونيه ١٩٦٧ حين كانت طائرات اسرائيل تتسلى بضربهم وتعقبهم وجمع مئاتهم الشاردة .. أردت أن أنتشى بفرحة الانتصار وأتلذذ بالشماتة فى أعدائى كمصرى فلم أستطع . فكرت فى أن أضحك أو أصرخ أو أجرى أو أمشى على يدى، ولكنى لم أجد وسيلة أقوى من الانسياق وراء شبق جنونى أستبد بكيانى لتأصيل تلك المشاعر الوطنية ، فاندفعت الى بورصة الأوراق المالية وقد تملكنى جنون المال والثروة .. وكان لابد أن أنتصر .

★★★

– سوف تحقق كل ما تهدف إليه وسوف تدين لك الأيام بالطاعة .

هكذا تنبأت لى « وسام » ليلة أن صفيت معها حساباتنا المالية المتعلقة بتجارة الملابس والأقمشة ، ايذانا ببدء مرحلة مالية جديدة فى حياتى الآخذة فى التطور السريع المفاجىء والقائمة على محض مصادفة .. لقد كانت الكراهية الشديدة غير المبررة من انسان تجاهى هى السبب القدرى الوحيد للهرب من موطنى .. واذا برغبتى المتواضعة فى النجاة من بطش طاغية حقود تتحول الى رغبة تنفجر عنفا وقوة فى العودة لتدميره من منطلق احساس قوى بالعدالة لا الانتقام .. وبمحض مصادفة أخرى عرفت من أمى أننى عشت تاريخا زائفا جرت أحداثه على غير ما عرفت واستباحت فيه أزمنة ثلاثة متعاقبة حرمة كرامتى وكرامة أسرتى ووطنى ووجودى ودنياى ، فكان لابد من العودة لتسوية الحساب مع تلك الأزمنة .

لقد قلت فى مذكراتى أننى سوف أحتفظ بأسرار علاقاتى بالجنس الآخر حتى لا يساء فهمها ، ويبدو أننى نسيت ذلك ورويت عنها الكثير .. فماذا يمنع الآن – مادام الأمر كذلك – أن أتحدث عن وسام ؟..

عرفتها بعد باتريشيا فعرفت كيف أرى ما فى الحياة الانسانية من مباهج ومسرات وحمدت الله أن وهبنى القدرة على ذلك .. علمنى الالتحام بها كيف أستمتع – إلى الحد الأرقى من درجات الاستمتاع – بالعمل مثلما أستمتع بالطعام والشراب والجنس والراحة والنظر إلى الزهور وارتياد الخلاء والتأمل فى لحظات السكون .. تعلمت فى مدرسة وسام مزيدا من دروس الحياة التى تعلمتها فى مدرستى فينيتا وباتريشيا وأضفت تلك الدروس إلى رصيد دروسى من المدارس المصرية حين نمت خلاياى وتكاثرت وتضاعفت فصرت رجلا يؤسره إحمرار

وجنتيها اللتين لم تتلوثا يوما بمسحوق .. خوختان طازجتان الى الأبد .. حمراوتان في الصباح في المساء في الحلم في الغضب في لحظات العنف والاستسلام .. طالما تأملت في وجهها البديع سحر الخالق الأعظم فيما خلق .. عيناها نجمتان سوداوان هائمتان في محيط من اللبن الحليب ، ومن خلف ثغر وردى مكتنز تشع أسنانها اللؤلؤية البيضاء المتراصة بريقا أخاذا يخلب روحى ويضمنى إليها فى عناق أبدى .

من خلال تعاملنا التجارى عرفتها دائمة الصراخ والفوضى والمرح والضجيج ، عنيدة فى سكونها الحزين ، مجنونة فى شهوتها للحياة .. كنت أتمنى أن يظل انطباعى عنها هكذا دون أدنى تحريف لكن الأحداث كشفت لى عن غلالة كثيفة من اليأس الشجى تستتر من ورائها حياتها الحافلة بالأسرار .

حين سألتها يوما :

– ألا تفكرين فى العودة الى لبنان ؟

انفجرت فى وجهى كبركان ثار فجأة ، وكأن كلمة لبنان كانت الثغرة التى انفلتت منها شظايا البركان المنضغطة وحممه النارية الملتهبة القاتلة .. لم تتوقف كلماتها الهادرة إلا بعد أن قالت :

– لن أعود اليه ما حييت .

أما أنا فعائد يوما الى مصر ..

– لماذا ؟

– لأننى كنت أحبه أكثر من أى شىء فى هذه الحياة .

كم تحيرنى هذه الدنيا فأنبهر بفوضاها كطفل .. متى أكبر اذن وتقل دهشتى لما أرى وأسمع ولا أقول علمنى فلان وعلمتنى فلانة ؟

وبكت وسام .. كل امرأة أعرفها تبكى أمامى .. حتى فينيتا دمعت عـيناها لحظة وداعى .. مـا هى تلك القـوة الكامنة فى روحى والتى تستحضر دوما دموعهن الغزيرة ؟. قتلوا زوجها وابنتها الصغيرة فى لبنان .. رصاص وقنابل ووجوه ملثمة فى كل مكان .. إبكى كما تشائين يا وسام فربما يشاء الله يوما أن يرحم أوطاننا البائسة من شهوة القتل بلا هدف ودون تمييز .. مسيحيون ومسلمون وشيعيون وموارنة ،موالين لسوريا وموالين لايران وموالين لاسرائيل ورهائن فرنسيين ورهائن أمريكيين ، ووطن أنهكته أقدام الغرباء .. مازالت بقع الدماء الغالية متناثرة على جدران بيتى الجميل محفورة فى ذاكرتى مطبوعة خلف عينى .. أقسم لك يا محمود أنه لا أنا ولا أحد غيرى يعرف من هم القتلة أو لماذا وقعت الجريمة .. الله فقط هو الذى يعرف ولست أدرى لماذا لم يشأ أن يحيطنى علما بمعرفته .

– وما الفائدة ؟

اذا لم تكن هناك فائدة من معرفة القتلة فما الفائدة اذن من عودتى الى الموت ؟ لقد تضاعف حبى للحياة وفقدت توازنى القديم بين الدنيا والآخرة حتى أننى نسيت كيف أصلى يا محمود .

– عندما تلتقين بأمى ستعودين الى الصلاة .

لم أكن أتصور أن تجلس وسام – الجمرة المشتعلة بالحياة – أمام أمى كحمامة وديعة تنظر اليها فى ود بالغ وحنان شديد .. ربتت أمى على صدرها الناهد ومرت بيدها على شعرها المنسدل على كتفيها فاستحالت تاجرة الملابس ذات الصيت الذائع فى الولاية بين تجار وحوش الى طفلة كبيرة تود لو نامت على صدر أمها وغرقت فى أسعد الأحلام .

استرعى ذلك المشهد انتباهى وأثار فى نفسى فضولا شديدا تجاه وسام .. أردت أن أعرف تاريخها منذ شبت عن الطوق حتى جلست فى رحاب أمى تظللها غمامة من الأمان .. تذكرت باتريشيا وعاودنى الحنين الى الاستقرار مع زوجة تحبنى وأحبها بعد أن تبدد أملى فى عودة نجلاء ، أما تيريز فلم ترد بخاطرى فى تلك الأثناء .. وقد تعجبت لذلك فيما بعد .

تكبرنى وسام بثلاثة أعوام وتقول انها رغم ذلك تعلمت منى الكثير وتمنت أن تقتدى بأسلوبى « الارهابى » فى النظام والتخطيط وأن تكتسب من صفاتى الجوهرية صفة الصبر الذى لا حدود له .

تعددت زياراتها لأمى بدافع من المحبة الصادقة ، الا أن هذا لم يقف حائلا دون أمى المنشغلة بأمر زواجى لكى تقول لى :

– هذه السيدة المسكينة لا تصلح زوجة لك .

ولقد كنت واثقا أن وسام لم تسع فى يوم من الأيام الى فرض نفسها على حياتى ، اذ كانت تعشق الحرية لنفسها وللآخرين ، وكانت ترى فى الحياة شيئا فوضويا تعجز معه عن اخضاع دنياها الى أى ضرب من ضروب النظام .. وشيئا فشيئا قلت زياراتها لأمى وتكاثرت زياراتى لها ، وكان بيننا ما يمكن أن يكون بين رجل وامرأة يعيشان بعيدا عن أوطانهما كل فى عالمه الخاص متحررين معا من كل ما قد يعوق علاقتهما من أسباب .

انصرفت الى عملى الجديد فى البورصة وتباعدت فترات لقائى بها دون أن ينقطع ما بيننا من ود واتصال .. وجلست ذات مساء أتصفح الجرائد العالمية فهالنى ذلك الكم المزعج من المذابح والانفجارات التى

تحدث فى لبنان .. ذلك الوطن المستباح دوما للغرباء .. تذكرت وسام وفكرت أن أتصل بها لأقول لها أى شىء .. بعد قليل دق جرس التليفون وسمعتها تقول لى بلهجة غريبة لم أستوعبها :

– سألتنى عن طفولتى أكثر من مرة ولم أجبك .. أليس كذلك ؟

– بلى .

– أما زلت تريد أن تسمع منى ؟

– أرجوك .

– فلنلتقى الليلة ما لم تكن مرتبطا .

استقبلتنى بابتهاج غير عادى .. كان واضحا أنها أسرفت فى الشراب .. بريق عينيها أفزعنى أكثر مما أثارنى .. آلاف الأميال تباعد بينى وبين مصر .. تفننت فى اختيار الثوب الذى يطلق مفاتنها من أى قيد .. لم تكن أنوثتها طاغية بل كانت قاتلة .. متى أعود ؟.. كانت امرأة أخرى لم أعرفها من قبل ، فلا هى وسام عبد الحميد التاجرة الشهيرة ولا هى وسام الطفلة الكبيرة التى جلست فى وداعة بين يدى أمى ، ولا هى وسام الأنثى التى تجيد أفانين العشق واللهو مجردة من أى صفات أخرى .. كانت امرأة مختلفة بحق .. أما أنا فكنت عقلا شاردا عذبه الحين الى منابعه الفكرية بين رمال صحراء شاسعة بعيدة ، وأرهقته حسابات هبوط الدولار وصعود الاسترلينى وصفقات السمسرة .. كنت جسدا مكدودا يبحث عن مستقر يهدأ بين ربوعه حتى يسترد قواه فيواصل معاركه من جديد .

انقلبت الى مجنون تفوق عليها فى جنونها ودمرنا معا كل ما شيدته الأزمنة والأعراف من حواجز وسدود فتعالت ضحكاتنا الهستيرية الى أصقاع الفضاء الرحب المحيط بقصرها العالى الجميل .

يا الهى العظيم .. انها تبكى هى الأخرى !

– دعنى أتكلم .. استمع الىّ فقط ولا تقل كلمة واحدة .

لثمت دموعها وامتثلت لأمرها وتذكرت يوم القيامة فتحولت الى أرنب ذى أذنين طويلتين وعينين زائغتين قلقتين .. قالت وسام :

– كنت فى السادسة عشر حين اتخذت أمى قرارها فى طى الكتمان بعد أن ارتابت فى أمرى مع بطرس ابن الجيران .. انتظرت حتى خرج أبى الى عمله ونادت جارتنا الشمطاء « حبيبة » .. توقعت أن تستعين بها أمى – كعادتها – فى إسداء النصح الىّ بأن أنتبه الى أننى صرت آنسة على وشك الزواج ، وأن أتخلى عن اللعب مع الصبية فقد انتهى عهد الطفولة ببروز صدرى ، وأن أتمسك بما أسمته أمى «عفافى» دون أن تبين لى ما هو دليل هذا العفاف وما هى كينونته .. لم يخطر ببالى أبدا أن جسدى يمكن أن يكون عرضة لأن يطرح للاختبار كما تطرح بهيمة أو دجاجة .. قاومت وصرخت بعنف جنونى ولكنهما أوثقتانى بحبل وأخذت حبيبة الشمطاء تعبث بأصابعها الابرية القذرة فى أدق دقائق جسدى بلا حياء .. فى تلك اللحظة عرفت موقع العفاف ولكنى كرهته وقررت تدميره بغير أن أدرى كيف يكون هذا التدمير .. قبلتنى أمى بفرحة عارمة حقيرة وعادت المجرمة العجوز الى بيتها بعد أن هنأت أمى ببراءتى .. تكومت على نفسى وانفجرت فى البكاء حين قالت لى أمى :

– ألا تعبثين الا مع هذا الكافر ؟

فأحببت الكافر من أعماق قلبى وعفافى ، وتمنيت أن أهبه القلب والعفاف معا انتقاما لاستباحتى المهينة .. ولما كبرت وكبر الكافر معى

فرقت بيننا الشيع والأحزاب والرصاصات والقنابل والميليشيات وطائرات اسرائيل .

فى تلك اللحظة من حديث وسام تذكرت تيريز واسترجعت فى ذهول بيان وزير الداخلية المصرى عن حوادث الشغب التى ارتكبها بعض المتطرفين من الجانبين الاسلامى والمسيحى فألقيت باللوم كله على ثلاثة : عثمان وكمال وعبد الله .. أنتم السبب وراء كل كارثة .. سأعود اليكم يوما ..

– وهل تزوجت من بطرس ؟

– كانت أمنية لم تتحقق .

أنتم السبب فيما حدث لوسام وسفيان وباتريشيا وسوريال ولطفى ونجلاء . أصابعكم الدنيئة وراء كل مصيبة تحل بأى بقعة على أرض هذا الكوكب ، فكيف لا أعود إليكم وأنتزع منكم عفافكم لو كانت قد بقيت منه بقية .

فوجئت بها تروح فجأة فى غيبوبة وتهذى بالكلمات ..

– طفولتى . ألا تحب أن تسمع المزيد عن طفلة مسكينة اسمها وسام؟

لاحظت أن لون وجهها بدأت تشوبه زرقة واضحة ، وأعقب ذلك أن تراكم زبد أبيض على فمها ثم امتنعت عن الكلام وسقطت على الأرض فكان مستحيلا بعد ذلك أن أراها إلى الأبد .

لم تمض أيام قليلة على رحيلها الإرادى الحزين حتى لحقت بها أمى . كاد الألم يقتلنى لوفاة أمى . خطفها الموت فى غفلة منى وفى لمح البصر . كان عزائى أن أبى مات قتيلا وأختى ماتت منتحرة أما هى فقد ماتت ميتة طبيعية بعد أن فتحت لى برفق كتاب تاريخى المفقود .

بقيت فى وحشة تعتصرني الوحدة بأذرعها الأخطبوطية القاتلة . غير أن نبوءة وسام بانتصارى فى عالم المال والتجارة تحققت بل وفاقت كل تصور . حينئذ تراخت قبضات الأذرع الأخطبوطية السامة وتقلصت نوباتها الهجومية ، فبدا لى أن المال فى كثير من الأحيان يستطيع أن يفتك بالشعور بالوحدة ويبدده ويقطع دابره ... ولكن إلى حين .

★★★

فتحت لى أمى كتاب التاريخ ثم رحلت . محمود أبو النجا يعرف الآن تاريخه . كانت تتحاشى الحديث عن صفية كلما جاء ذكرها مقترنا بوفاة أبى وخلافه الأخير مع عائلة الهوارى . يستبد الكدر بمعالم وجهها وينتابها وجوم كئيب .

– حدثينى عن الهوارى بك .

– ما عشقك هذا للنبش فى الماضى ؟

لعلها كانت تعانى من التردد ما فوق طاقتها من قدرة على المعاناة . « هل تموت فرحة بسعادة ابنها وعزه وجاهه مكتفية بما أسرت إليه عن تاريخ أبيه أم تفتح له صفحة العار فى نفس الكتاب » ؟ ..

شيخوختها تخون ذكاءها وذكاؤها يخونها فألحظ ارتباطا وثيقا بين عبد الله الهوارى ووفاة صفية واغتيال أبى . ما كان لى أن ألحظ وأقارن وأتوجس حين كنت فى الثامنة أو فى الحادية عشرة حين قالت لى إننى سوف أعرف كل شئ بعد أن أكبر .

– لابد أن تتكلمى يا أمى . ماذا أخفيت عنى طوال تلك السنين ؟

بعد خمس سنوات من إقامتها معى تكلمت ...

آه يا صفية . قتلوك أنت الأخرى . أى عهد إذن سوف يخلو من القتل يا خالق السموات والأرض ؟ . خمسة عشر عاما كان عمرك . سنابل القمح فى لون بشرتك وأوراق الشجر فى لون قلبك الصغير . والمسألة أيها السيدات والسادة يا من تقرأون الآن مذكراتى ليست بحاجة إلى الانحياز أو المبالغة ، فيوم ماتت صفية لم أكن قادرا بكلماتى على التعبير عما يعتمل بجوارحي . اليوم أعيد صياغتها وأضيف إليها سنواتى وما تحمله فى جعبتها من حكايات القهر ودموع الحنين .

صفيتى كانت صموتة باسمة مطيعة محلقة . تعطينى كل ما أريد ولا تريد لنفسها شيئا . تحكى لى قصصا جميلة . تبكى تأثرا لأهون الأسباب . فراشات الحقول تحبها والعصافير . كاللؤلؤ المصفوف كانت أسنانها حين تبتسم . دائما نظيفة الوجه والقلب والملبس . تطل من عينيها أسئلة كثيرة . ابنة موت كما يقولون . تنبهر لرؤية طفل أو زهرة . تصدق ما يقال لها من أى مخلوق . تسخر منها بعض القبيحات حسدا على جمالها فتلقبنها بالشيخة صفية . حين تغنى أمامى بصوتها الملائكى الناعم تنساب فى قلبى طمأنينة وتغمرنى فرحة فأشعر أننى الكون نفسه . تقول لى إن الحياة جميلة . تعلمنى ابتسامتها أن أحب الناس ، ويعلمنى صمتها أن أقل مثلها فى الكلام . الكبار ينظرون إليها فى تعجب ممزوج بالإكبار والدهشة . مم خلقت هذه الإنسانة وكيف تربعت الوداعة على عرش كيانها والشفافية فى عمق روحها الصافية والبراءة على قسمات وجهها الجميل ؟

لا يستطيع أحد أن يدعى أنه يعرف كيف وقعت الجريمة الوحشية ، فصفية لم تقل شيئا ، كما أن القرية بأكملها قد التزمت الصمت بما يؤكد أن الجريمة قد تمت فى خفاء شديد . لكن آلة الأزمنة قد التقطت على شاشتها فى يوليو من عام ١٩٥١ ثلاثة مشاهد تسجيلية كاملة .

المكان : إحدى إقطاعيات الهوارى باشا

المشهد رقم (١) :

نهار خارجى

– غابة من الأشجار تطل على بحيرة يعوم فيها البط وتحوم فوقها أسراب من الطيور .

– كان عبد الله فى الخامسة والعشرين . سيء الخلق على عكس أبيه . لا يعمل شيئا صالحا لنفسه أو للغير .

– عبد الله يمسك ببندقية صيد ويصوبها علي الطيور ، ومن خلفه يسير أحد الخدم حاملا معداته . يسقط طيرا فى البحيرة ، ويضحك بسعادة هستيرية .

– يقضى معظم وقته فى الصيد (صوت طلقة نارية يدوى صداها ويعقبها قهقهات عبد الله المتعاقبة فى هيستيرية غريبة) .

– أسراب الطيور تحوم حول الطير الساقط محدثة أصواتا حزينة .

– (نواح الطيور) .

– قطع –

المكان : شقة مفروشة بالمدينة

المشهد رقم (٢) :

ليل / داخلى

– عبد الله يفتح باب الشقة ويدخل مصطحبا معه فتاة ريفية تبدو السذاجة على وجهها المنكس فى الأرض .

– يغلق الباب وتبدو فى عينيه علامات النهم والجوع الجنسى الشديد .

– يقبل الفتاة باندفاع غبى فتحاول الهرب منه دون جدوى .

– الفتاة تستسلم مرغمة (لم أشأ توضيح أسباب معينة لهذا الإرغام ، رغم تعدد احتمالاتها) .

– أما فى المساء فإنه يمارس هوايته الحقيرة فى الفتيات الضعيفات حولا وقوة فى أى مكان بعيد يستأجره بالمدينة مدعيا أنه سكنه الدائم .

– ثم يستغفلهن ببعض الجنيهات ويختفى تاركا سكنه الوهمى بحيث لا تستطيع إحداهن الاهتداء إليه إلى الأبد .

- قطع -

المكان : شاطئ البحر بالإسكندرية

المشهد رقم (٣) : نهــار / خــارجى

- عبـد الله يجلس تحت مظلة ملونة أمــام كــابينتـه الفــاخــرة بأحــد الشــواطئ الراقية وبيده كتاب أجنبى وفى فمه سيجارة .

- لقطة ســاقطة (تعــاد فيما بعد لأسباب فنية) حيث نرى مــجـمـوعـة من الشـبـان الأجانب ملتفين من حول عبد الله وأمــامــهم زجــاجــة خـمـر وبعض المأكولات .

- عبـد الله يمسك بقلم وورقــة ويجلس بداخل الكابينة ليحصى آخر مـا حصل عليه من أموال ويقوم بعمليات جمع وطرح وضرب .

- وأحيانا يقرأ الشعر الإنجليزى . لا أكاد أتصور أن هذا السميك اللزج يقرأ الشعر أو يتذوقه .

- كان يكره اللغة العربية ولا يتحدث بها ويتباهى دائما بأن مــعظم أصــدقــائه من الأجــانب ، حــيث لا تحلو له الشتائم فى مصر والسباب فى أهلها إلا بصحبتهم .

- لم يكن يعنيـــه من إدارة أعــمــال أبيــه ســوى تقــاضى أرباح المصــانع وإيرادات الممتلكات العقـارية وغلة الأراضى الزراعية .

هف !. قلمى لا يطاوعنى على الاستمرار فى كتابة هذا السيناريو المقزز ، فضلا عن أننى لست أميل إلى كتابة مذكراتى بهذه الكيفية .. وربما لا أعود إليها إلا عند المشهد الأخير .

كان أبى يعمل فى خدمة الهوارى بك أو الهوارى باشا فاللقب تركى والسلام . الأتراك احتلوا مصر . الفرس أيضا احتلوها من قبل ، وكذلك فعل اليونان والرومان والعرب . أسفرت هذه السلسلة الطويلة من تعاقب الاحتلال والجلاء عن مجئ ملايين إلى الحياة من بينهم أبى الذى كان قدره أن يكون مصريا عربيا مسلما وأن يرتبط رزقه بالباشا . الباشا جعل منه سكرتيرا خاصا له ، ومديرا لأعماله ، وضابطا لمواعيده ولقاءاته وتحركاته وجامعا لأمواله وأوراقه . كان أبى محل ثقته فى كل ما يتعلق بعمله وثروته . كان الباشا مهذبا رقيق الحاشية يحب عمله ويخلص له ولا يبخل بعطاء ، ولهذا أحبه أبى وأفاض فى الحديث عن أفضاله فى كل مناسبة .

عندما أراد الهوارى أن يمهد الطريق لابنه حين تقدم به السن وأدركه المرض ، فإنه بدأ يتحرر تدريجيا من أعبائه التقليدية تاركا زمام الأمور إلى عبد الله مكتفيا لنفسه باتخاذ القرارات المصيرية التى تحتاج إلى الحكمة والتجربة .. ثم أنه فى النهاية مل العمل فجأة وانقلب إلى طفل يعشق الفراغ واللهو حتى استسلم للمرض وترك لابنه الحبل على الغارب .

كان على أبى أن يتعامل بحرص شديد مع رئيسه الجديد . ذلك الطائش الفظ الكريه الذى لا يحترم أحدا . تحمله أبى بهدوئه ووقاره جاهد أن يتحاشى سفالته وسخريته من كل شئ ، وكان أن دفع الثمن

من أعصابه وكبريائه حفاظا على قدسية لقمة العيش . وقد انعكس هذا على مزاجه منذ ذلك العهد إذ تلاشت ابتسامته الهادئة المطمئنة واكتسى وجهه بمسحة من الاكتئاب لم تعد تفارقه .

كـان يتنقل لدواعى عمــله بين الاسكندرية والقــاهرة ودمنهور والشرقية . واقتضى الأمر يوما أن يبقى لعدة أسابيع بالشرقية ، فاستأذن عبد الله أن يصحب معه أسرته الصغيرة لمشاركته الإقامة فى «العزبة» حتى ينتهى من إنجاز عمله وليته ما فعل .

فى العزبة تجاهلنى عبد الله وشعرت نحوه بكراهية فطرية ، فالأطفال لا يحبون بغريزتهم إلا من يحبهم ويعرف كيف يحبهم . ولكنه عندما رأى صفية تبدل حاله وصار يتابعها بنظراته كالمذهول ، وصرت أتابعه أنا الآخر بنظراتى الصبيانية الساذجة المتسائلة ، وإن كنت دائم التوجس منه بلا سبب واضح .

على الفور ظهرت شقيقته «سونيا» المتعالية المتغطرسة وصارت تقوم معنا وتقعد كما لو كانت فردا من أفراد أسرتنا المتواضعة الحال . ولقد استوعبتها صفية فى دقائق بابتسامتها الحانية الطاهرة حتى أننى تعجبت كيف أحبتها سونيا ذات الأنف المتكبر فالتصقت بها ليلا ونهارا . وهكذا كان من حق عبد الله أن يوجد معنا كثيرا فى غياب أبى أو حتى فى حضوره مادامت سونيا – مسمار جحا – معنا .

المكان : عزبة الهوارى باشا بالشرقية

المشهد الأخير :

نهار/داخلى - خارجى

- حدائق شاسعة مزروعة بأشجار الفاكهة والورود .

- خميلة متطرفة بعيدة عن موقع قدم فى أقصى الغابة .

- عبد الله يسحب صفية إلى الداخل وعيناه زائغتان رغم ابتسامته الصفراء المرتبكة .

- صفية فى حالة انبهار طفولى واضح .

- يدخلان ويفترشان الأرض وهو ممسك بيدها دون أدنى مقاومة منها ، بل يبدو أنها سعيدة بصحبته .

- ينظر إلى وجهها فى وله شديد .

- يفيق من ذهوله ويسألها فى خبث شديد النعومة .

- هاه . ما رأيك فى الحب إذن يا صافى ؟

- هاه . ما رأيك فى الحب اذن يا صافى ؟

- جميل . رائع . أنا أحب كل الناس حبا شديدا وهم يبادلوننى نفس الحب .

– يقترب منها بمكر ثعلب ويحيط كتفها بيده .
– تنظر إليه في استفهام برئ فيقبلها .
– يبدو واضحا أنها استمتعت بالقبلة .
– لا يستطيع أن يكتم دهشته لاستسلامها العجيب فيسألها ساخرا .
– يواصل العبث بوجهها ورقبتها وشعرها بينما أنفاسه تتلاحق .

– يستوثق من شدة سذاجة الفريسة .
– تستسلم لقبلاته التي تزداد حرارتها .
– يفقد السيطرة على نفسه فيحتضنها بعنف .
– يستلقيان معا على الأرض الخضراء .
– لقطة على بقعة طينية جرداء حول الخميلة .
– الخفير رضوان يستيقظ من النوم فيصا بالذعر لما يرى .

– وأنا أحدهم بالطبع .
– نعم .
– فلماذا لا أعبر لك عن حبي ؟

– قولي لي يا صافي . ماذا تعرفين عن العلاقة بين الرجل والمرأة ؟
– أعرف أشياء غامضة لست أفهمها .
– من أخبرك بها ؟
– بعض الصديقات كن يتحدثن عنها أمامي .
– ألم تعرف شيئا من أمك ؟

– نعم ، لم تقل لي كلمة واحدة عن هذا الأمر .
– سأعلمك ما لم تعلمك أمك .

– قطع –

حتى لو كنت كاتبا يزهو بخيال برى متوحش فإننى سوف أعجز عن إضافة كلمة واحدة إلى هذا المشهد الذى لا ينقطع حدوثه منذ بدء الخليقة ، فكيف لإنسان أن يتفنن فى وصف اغتصاب شقيقته وانتهاك عذريتها ؟ . إن الذى أستطيع أن أتفوق فيه على أعظم كتاب العالم هو دفاعى عن ثقتى ببراءة صفية قبل اغتصابها وبعده رغم أنف اتباع فرويد وانصار داروين وأحباب ماركس وأينشتين . هذه الفتاة أيها الناس لم تكن تعرف شيئا عن الجنس رغم بلوغها الخامسة عشر من عمرها . كثيرات غيرها يعرفن مالم تعرفه ، وربما قبل بلوغ هذه السن ، سواء بالفطرة والغريزة أو من تناقل الكلمات على ألسنة الرفيقات . أما هى فكانت صادقة مع نفسها إلى أقصى المدى ، وحين بخ فيها ذلك الثعبان من سمه القاتل فإنها لم تكن تدرى لأنها كانت غارقة فى نشوتها وسعادتها بتفتح واستكشاف تلك الغريزة المعجزة وسريانها فى كيانها ، بل أن سعادتها قد بلغت بها أقصى الذرى حين استلقت بجواره على أرض الخميلة المهجورة والتصق جسده بجسدها . سألها عما لا تعرفه فأجابت بالحقيقة . أغواها فاستجابت وهى لا تتصور أنها غواية . اللعنة على علماء النفس والجنس والقانون والجريمة والاقتصاد والسياسة لو سخروا من آرائى ورمونى بكلمات الإشفاق لكونى مطعونا فى شقيقتى ، فليس ما أقوله الآن عنها – فى عرفهم – إلا عبثا وهذيانا ، لأن فتاة فى هذا العمر لابد أن تعرف ماذا تفعل ، وماذا يفعل بها حتى لو عاشت هذا العمر فى معزل عن العالم بأسره . بريئة يا صفية . طاهرة ملائكية . هكذا كنت قبل دخولك إلى الخميلة وبعد خروجك منها .. رغم أنف الجميع



الموت وحده هو الذى يمكنه أن يحول بينى وبين رأس هذا الثعبان الذى بخ سمه فى رحمها الصغير .. أما المرض فلا .

– المهم ألا أموت قبل أن يخرج .

– استغفر الله يا رجل .

– كفاك استغفارا يامروان . هل قرأت الملف ؟

– لسنا الآن فى الملف . صحتك هى الأهم .

عرف مروان كل شئ مثلما عرف أن صمته لم يحل دون ترقية زميله البهلوانى الواصل وإهماله هو – الحارس الأمين – فى ركن النسيان . ولن يحول صمته مستقبلا دون اغتصاب كرامته واستنزافها فى أحسن الأحوال فتراكم الصمت على الصمت لا يحول دون تحليق النسور فوق قمم الجبال بعيون تتطلع إلى النجوم .

– الحمد لله . لقد كتب لى عمر جديد ، أما السيارة فقد آلت إلى حطام .

– فلننس كل ما حدث ونبدأ من جديد .

– كيف نبدأ وأنا طريح الفراش ؟

– دعنى أبدأ وحدى هذه المرة .

كنت واثقا من عودتك إليك . ليس ما أراه الآن وأسمعه حلما . الحلم فقط هو نجلاء . تلك التى رأيتها جالسة بجوار رجل فى عربة زرقاء فطرت بعربتى من خلفهما متحديا قوانين الكون حتى ألحق بهما ولم أفلح . طفل صغير لا يتجاوز الثامنة ظهر أمامى فجأة ومعه خياران لا ثالث لهما .. أن يموت هو أو أن يموت محمود أبو النجا فلا يرى نجلاء

ولا ينتزع جذر عبد الله الهوارى من أرض التكية . تكية كل الأزمنة .
هكذا كنت أظن حين تعمدت الارتطام بالشجرة . لكن اختيارا ثالثا هو
الذى كان رغما عن أنفى ، فقد عاش الطفل وغاب طيف نجلاء ولم أمت،
وإنما تناهت إلى سمعى أصوات غامضة لتلك الأزمنة القديمة الساهرة
فى كهوف ذاكرتى المجهدة .

– يؤلمنى أن أبقى فى الجبس عدة أسابيع فلا أتمكن من دخول
قصره .

– سوف أحملك معى إلى المطار يوم خروجه . قل لى ماذا تريد .

– سلمه الملف .

هل كانت نجلاء أم كان طيفها أم تلك هواجسى التى لا مفر من
الخلاص منها بأى ثمن ؟ .. لقد تعثرت فى خطوتى الثالثة حينما نقضت
عهدى لنفسى بأن أرجئ كل ما يعطلنى عن تحقيق عدالتى إلى أجل غير
مسمى . أنا المسئول عما حدث ولا أحد غيرى . لا نجلاء ولا تيريز ولا
عبد الله الهوارى ، فلقد عرف الآن محمود أبو النجا تاريخه .

تاريخى أيها السادة يوجز فى أورام مصرية ثلاثة بدأت فى
الظهور على جسدى منذ جيل أبى . وتاريخ أجدادى لا يوجز فأورامه
قادمة من بلاد الفرس و اليونان والرومان والإنجليز والفرنسيين . سوف
تعجز ملايينى مهما تضاعفت عن استئصال ما استجد فى الحاضر من
أورام ، إذ يبدو أنها أشد فتكا وتدميرا . لقد أدركت هذا منذ أن انطلقت
بى السيارة من المطار إلى قلب القاهرة وقرأت فى ذهول ما قرأت من
إعلانات على جانبى الطريق .

ولكن يبقى أن أظل متشبثا بعنادى وثورتى وإلا ضاع كل شئ وبقيت الأورام جميعا وتكاثرت وتضاعفت . إن نجاتى من الموت أصبحت تخيفنى أكثر من الموت نفسه ، فقد اهتز على أثرها إيمانى بعدالتى وصار اندفاعى إلى تحقيق خطواتى الأخيرة موصوما بالبطء والتراخى وفقدان الحماس والإحساس بعبثية التاريخ .

لا تتردد يا رجل . لم يعد هناك مفر من البدء - كحد أدنى - باستئصال الورم القديم ، وليكن بعد ذلك ما يكون .

- وبعد أن أسلمه الملف ؟

- تعود إليه فى اليوم التالى وتبلغه القرار .

- أهكذا فعلت مع الآخرين ؟

- تماما .

- آه لو علموا بمهارتك الفذة هذه ، لكانوا أجلسوك على مقعدى .

- إنى أشك فى هذا ، فأين يجلسون زميلك إياه ؟

★ ★ ★

مروان يصف لى ما حدث :

ملاحظة : لن أكتفى بذكر ما قاله ، بل سأضيف ما كان ينوى أن يقوله ولم يقله بغض النظر عما دعاه إلى ذلك .

اليـــوم الأول

دخلت القصر ومعى دخل اثنان وخمسون عاما من العمل الدؤوب بلا كلل والإخلاص المطلق لشئ لابد أنه مجهول لأننى لم أعرفه حتى

الآن فتعجبت كيف استطعت أن أنجز كل هذا الزمان من عمرى مغيبا
فى الطريق إلى ضباب لا أدرى من أمره شيئا فالحيوانات تأكل وتتناكح
وتنام وتموت لكن فى شجاعة – وإن كانت غريزية – أحسدها عليها أنا
الموظف الكبير سجين الراتب الشهرى والدرجة الوظيفية وكلمات الثناء
من كبار رجال الدولة الذين أنتمى إليهم بالمصادفة فأتيه بين الأعمدة
الرخامية العملاقة والتحف الأثرية واللوحات الثمينة ورائحة الرخاء
المتخوم تلك الرائحة التى لا توصف كما توصف عناقيد العنب على
عروشها ولا تشم كما تشم رائحة الباذنجان المقلى فإنها تلج النفس فى
وقاحة عبر الأزمنة والقرون والسنوات والفصول والأشهر والأسابيع
والأيام والساعات والدقائق والثوانى وتظل تعمل فيها ما تشاء وكيفما
تشاء ، وما من قدرة على الرفض أو المقاومة سوى التشدق بعبارات
قالها الغير عن الرزق والاشتراكية والدين والعدالة الاجتماعية والثورة
وتصحيح مسار الثورة ثم الثورة على تصحيح الثورة فتصحيح تصحيح
الثورة دون جدوى ، أما هذا السمين المترهل صاحب البطن الرخو
المنتفخ الواصل حتى تحت الرقبة والوجه الأحمر ذى النمش وأطراف
الأصابع النقرسية وارتفاع نسبة البولينا الملوكية التى لا يمكن أن يتبعها
الرقاد على سرير متهالك فى مستشفى حكومى ينهشه التلوث والفساد
ويحتله السوقة والحثالة والكادحين والحشاشين والرعاع فيقف مرحبا
ويقول لى كلمات بالفرنسية والإنجليزية وفتات من العربية المسكينة وهو لا
يذكر أنه ناكح امرأتى الأولى فقد نسيها وما نسيتها يوما رغم زواجى
وعقم حياتى وجفافى وحرمانى من الندى والمسك والعنبر وحصولى على
الثقة من أسود الغابة الكسالى . . وملفك يا سعادة الباشا يصلح لإعداد
فيلم سينمائى جبار يتهافت عليه جمهور السينما المصرية من الحرفيين

ذوى السحن المتشابهة والشعر الأكرت الطويل والسيجارة المارلبورو والبنطلونات الجينز ومخارج الحروف المثيرة للتقزز والصوت القوى حتى للضعيف منهم وأنا القوى بالوهم وأنا مروان رمضان الفوانيسى الجبان الذى لا يعرف مم يخاف والمتردد الذى لا يعرف كيف يحسم وملفك يا هذا ثروة فنية لو عثر عليها كاتب فنان لأبدع لنا فى قصة أو رواية كيف اعتديت على شرفى وأنا فى السادسة عشر من عمرى دون أن أدرى وحين أخفى عمى وزوجته جريمتك فإنك التزمت الصمت وغمرت قلبك فى ماء الورد وأطلقت البخور وشربت الويسكى والقهوة وأكلت الكافيار المملح واستوردت الطعام الذى تشتهيه ولا تجده فى تكية الفقراء الضاحكين الضحوكين أنا لا أحسدك أو أحقد عليك - كما قد يتبادر إلى ذهنك - فإنها المرة الأولى التى أفكر فيها بك طيلة حياتى فالمسألة أننى أكرهك فقط وما أسوأ أن يكره من هو مثلى من هو مثلك فأنا الهرب والهرب أنا .
أما المواجهة فليست شيمتى لأننى دائم التقليب فى الأمور من فوقها إلى تحتها إلى جوانبها الأربعة ثم إلى قلبها وأطرافها وأبعادها حتى أصل دائما فى النهاية إلى قرارى الأزلى الأبدى وهو اللا قرار فكيف ينقلب العذاب إلى متعة يابن الكلب قل لى كيف أحسم أمرا فى حياتى فأنا أتمنى منذ زمن أن أتزوج من امرأة أخرى تنجب لى طفلا أو طفلة ولكنى لم أفعل وأنا أريد منذ زمن أن أستقيل من هذا العمل الكريه ولم أستقل ولو كنت قد تزوجت من صفية لكان ابنى الأكبر قد تخرج فى الجامعة أيها الكائن الدودى الرخوى العفن الحقير وأنا أتمنى الآن أن أعتصر رقبتك حتى تخرج روحك الثقيلة الهابطة المتهابطة من فورها إلى الجحيم الذى ينتظرك ولكنى لن أستطيع وإن كنت أنوى أن أفعل بك ما هو أفظع من ذلك لأن العذاب سيستحيل اليوم إلى متعة فهذا هو البديل الوحيد عن

موتى الحقيقى المحقق وأنا هربت من ابن عمى المجنون منذ جاء إلى مصر وفى دمه شيطان ذو ثلاثة رؤوس أنت أحدها بل أكبرها واليوم سوف أجن معه ولن أهرب منه وسوف تخرج لا لأن المجنون قرر ذلك بل لأننى اليوم صاحب القرار ومن له أذنان للسمع فليسمع صرختى فى وجه هذا الكون الجبار بأننى صرت جديرا - كما كان لابد أن أصير - بالانتماء إليه مثلما هو حال ابن عمى المجنون الذى يفعل دائما ما يريد حتى وهو مشدود إلى الجبس فمرضه كان انقاذا من المولى لعقلى من رزانته السخيفة ومنهجه الخاضع للترتيب الدارس للاحتمالات المحلل للنتائج المقدم المحجم الوقور المتذبذب الحاسب المحتسب وأسماء أخرى وصفات لا تنتهى إلا إلى التجمد لا داخل إطار من الجبس بل فى قالب من الثلج الذى لا ينصهر ولو نزلت الشمس بحممها إليه فهذا المجنون قد استطاع أن يقنعنى بمساعدته على الهرب قبل أن يقبضوا عليه بتهمة ملفقة كيف جروء كيف استطاع أن يفكر كيف توقع أنه سيجد خارج مصر من يقف بجانبه وهو الذى لم يغادرها مرة واحدة من قبل إلى أى بلد آخر وإذ بى أفاجأ به يبعث الىّ من فنلندة ثم من أمريكا ثم من سويسرة ثم من أمريكا ثم يجئ بملايينه - المجنون - زاهدا فيها راغبا فقط فى تحقيق حلمه الخرافى بقطع الرؤوس الثلاثة ولست أدرى كيف تمكنت بسهولة من خداعه وخداع نفسى فى آن واحد ولا إلى متى سأظل قادرا على صمتى أمام عارى الذى وصمت به صفية فمن هذا الذى أستطيع أن أبوح له بسرى وأنفث أمامه من براكين صدرى وألقى بين يديه بالحمل الكريه من على كتفى ؟ إنه مخلوق لم يخلق بعد ولهذا فلا بديل عن لعبة الكذب التمثيلية وما الذى يمنع أن أكذب فى جزئية طارئة من حياتى وقد كانت وما زالت تلك الحياة بأكملها أكذوبة دائمة ؟ .

تعرفنى أيها الوغد من صورى التى تُنشر دوما فى الجرائد بوجه صارم وتقطيبة عابسة فترحب بى فى ثقة تخلو من النفاق فهى ثقة المالك الحقيقى المستخف بمن يسعون فى مناكبها متقاتلين على طعام اليوم مفتقدين طمأنينة الغد - فتلك رفاهية لا معنى عندهم للحلم بها - وما حاجتك اليوم إلى النفاق والقانون يدعمك والملف لا يدينك إلا أمامى فقد أعاد إليك ممتلكاتك قانون غير القانون الذى انتزعها منك وهكذا شأن الأزمنة فزمان أنت فيه الإقطاعى الذى يمتلك الأرض بمن عليها فيسلبك ما ملكت وزمان أنت فيه المظلوم الذى اغتصبت فيه حقوقه فيعيد إليك شركاتك وعقاراتك وأطيانك لتجلس واضعا ساقا فوق ساق وتسافر مع «نانى» فى الصيف إلى سويسرة وفى الشتاء إلى بلاد مجهولة لم أسمع من قبل عن أسمائها ويتدلى كرشك بحيث تعجز عن رؤية فحلك حتى لو كنت عاريا وحتى لو نجحت فى رؤيته فما جدواه وقد فقد قدرته على اغتصاب صفية أو غيرها مرة ثانية وموعدنا غدا إن شاء الله .

اليوم الثـــانى

كيف تجرؤ على المقاومة يا وقح ؟

هل تنكر اغتيال البراءة بيديك النجستين ؟

هل تعلم أننى كتبت كلماتى شعرا فى وصف ضحيتك قبل أن ترى وجهك الكريه ؟

جاءك عمى يتوسل اليك أن تتزوجها ولو تطلقها بعد عدة أيام فهى « ليست من مقامك » . كسفت الشمس وخسف القمر .. سخرت منه وأنكرت فعلتك وطردته من خدمتك رغم أنه هو الذى بادر بترك عمله . هبت رياح السموم . أصبته بذبحة فى صدره العامر بالحب والايمان . لفظت به إلى شوارع الفقر الكئيبة الضيقة النتنة ذات الالتواءات الثعبانية التى تفح بالجوع والمرض .. كيف تجرؤ ؟.

لكن الحق معك فالقانون فى صفك . لا أنا ولا محمود المجنون نملك حق مصادرة أموالك أو حتى تهديدك باغتصابها أو اجبارك على التنازل عنها . لا أنا ولا محمود المجنون - العاقل - نستطيع اجبارك تحت أى تهديد على مغادرة البلاد فملفك ضعيف الحجة وأنت القوى بتعاقب الأزمنة . حتى جريمتك يمكنك أن تنكرها - وقد أنكرتها بالفعل - لأنك تعرف أنها تفتقر الى دليل واحد يؤيد وقوعها فصفية قد انتحرت وعمى قد قتل وزوجته قد ماتت وما من شاهد واحد على ما حدث . ما من شاهد وحيد على أنك مهدت لقتل عمى قبل أن ينزل سوط كمال عبد الرحيم على وجهه الحزين وصدره الجريح . أنت قاتله اذ عجزت أدوية الدكتور منير وعقاقيره المجانية عن شفائه . أنت عثمان مرعى يا عبد الله الهوارى .

- لن أغادر مصر ، ولتفعل ما تستطيع أن تفعله .

أين أنت يا *حبيبة عمرى الذى ضاع وعمرى الذى سيضيع ؟..* أين أنت لتشهدى بنفسك كم تهاونت فى حقك وفى حقوقنا جميعا أيتها العزيزة غفر الله لك وسامحنى . كيف تحققت على صدرك معجزة التزاوج بين الطهارة والخطيئة كيف تمنحين جسدك لرجل غيرى أم ترى قد خدرك هذا الملعون فى شراب أو طعام فلم تشعرى بشىء قبل أن يسيل لعابه الدنىء على فمك الرقيق الدقيق يا برعما نزع بوحشية من ساقه ليؤدى طقوس الموت بين الديدان والأتربة والفضاء والصمت والعدم. اننى أشم رائحة حريق . كان عمى يصفك بالجوهرة وكنت ألومه على هذا الوصف فالجوهرة مادة من تراب ، أما الملاك فروح من الله وأما أنت فقد انتزعت روحى وأبقيتنى اثنين وخمسين عاما فى غيبوبة أيها القاتل أنا شريكك فى الجريمة . أنت معلمى السافل الواطىء الذى دربنى نصف قرن على الجبن والخوف والتردد والعجز عن اتخاذ أى قرار .

– فاعلم أن حياتك مهددة بالخطر .

– تهددنى اذن وأنت المسئول الذى يفترض فيه الحفاظ على أمن الشعب وأرواحه ؟

بل أهدد ابنتك أيضا ولا يعنينى أن أهدد حياتى أنا الآخر لو اقتضى الأمر ذلك ، فما عادت هذى الحياة تساوى شيئا وقد مضى منها ما مضى بلا شىء فى لا شىء للاشىء .

– العين بالعين والسن بالسن .

– هناك قانون يحكم البلاد .

ان كان هناك قانون فانه القانون الذى يبيح لى أن أفعل بـ «نانى» ما فعلته بابنة عمى .. وأنا أيها العجوز الأجرب المنتهى قد أوحشتنى الفتيات ، فزوجتى الطيبة الوقور أفقدها العقم أنوثتها ورغبتها فى الحياة ، ولسوف تتفتح نشوتى للجنس على يديك لو لم تسارع بالاختفاء من وجهى فابنتك هى النموذج التقليدى الأمثل لأى امرأة يشتهيها الرجال بعد الخمسين .. بضة حمراء الوجه مثلك . مكتنزة الفخذين . ذات مؤخرة مثالية فى استدارتها وارتفاعها وثقلها ، وعينين جريئتين داعرتين وصدر ناهد مرمرى .. وأنا رجل قد طهقت من الوقار وقرفت من الحياة ومللت الخجل وكرهت الاتزان وعشقت الجنون فجأة ، فسوف أفعل بها وأكفر عن حرمانى تحت جلدها الأملس حين تقع بين قبضتى وما أسهل ذلك – ان كنت لا تعرف – فقد سبقنى الى هذا المقعد كثيرون ممن اعترفوا بالقانون وانحنوا احتراما له ثم فسروه وفصلوه وحاكوه على قد أهوائهم ورغباتهم وخزائنهم .. أين أنت ياصفية لتسمعى وترى ؟

– هأنذا ...!

– من أنت ؟.. من أنت ؟!

– أنا صفية ..

صفية ؟.. أمعقول ؟.. وهل يمكن لمذبذب مثلى أن يتجاوز جدارا عملاقا يفصل بين الحلم والحقيقة ؟

– لا تخف يا حبيبى .. ألم تقل لنفسك منذ قليل مثلما قلت لأبى من قبل اننى روح ؟

– بل قلت فعلا .. قلت ..

– لا تلتفت يمينا ويسارا فلن ترانى الآن كما إن أحدا غيرك لن يسمعنى .

يارب الكون جاءتنى صفية .. أراها رؤية العين لا حلما ولا خيالا ، ويعتقد القاتل أننى أكلم نفسى فيضحك بسخرية واثقة وثقة ساخرة متزايدة وهو يقول :

– يبدو أنك انسان معتوه .. أخرج قبل أن أخاطب بشأنك وزير الداخلية أو مستشفى المجانين ... ولا أعبأ به فأتسلق الجدار العملاق وأعبره وأتجاوزه .. أنزف عمرى بأكمله لقاء مخاطبتك يا صفية الروح .. بربك ما الذى حدث ؟.. تكلمى فقد عبرت الحاجز وأصبح لا يعنينى أن تكونى حقيقة أو حلما .

– أخرج من بيتى أيها المجنون .

ترددت أصداء ضحكاته الساخرة بين جنبات قصره وكنت أتعجل خروجى للانفراد بالحلم .. قالت بهمسها الساحر كما لو أن الأمر لا يعنيها :

– لم يغوني هذا المخلوق كما تعتقد يا مروان .. أنا الذي أ. ببت قوله وفعله واستجبت له بكامل ارادتي . كان نداء جسدي طاغيا فاجئا كاسحا كاسرا جبارا عتيا لا قبل لي بمقاومته ، كما لم أكن أرغب أصلا في المقاومة ، فكيف يقاوم انسان ما تميل اليه نفسه ؟.. انني لم أشعر بالخوف أو الندم لحظة واحدة طيلة بقائي معه بالخميلة ، حتى بعد أن انتهى كل شيء .. لكنها لحظة خاطفة لا تحتسب من الزمان عبرت باحساسي حاملة في طياتها زمنا طويلا لم أعرف مداه . لحظة أن نظرت الى عينيه بعرفان ومودة فرأيت فيهما شياطين جهنمية تعربد نشوة بانتصار الأنانية ولم أر نفسي بهما بل رأيت عبد الله وحده وبدوني وعلى شفتيه ابتسامة صفراء شاحبة خبيثة مذنبة منكسرة آثمة لا حلاوة فيها ولا حب ولا أمل ، وكأنما ارتكب صاحبها جرما يسعى الى التحرر منه . في تلك اللحظة فقط عرفت أنني أخطأت وقررت أن أنهي حياتي ، وعندما نظرت من حولي لم أجده .

– ألم يركما أحد ؟

– الخفير رضوان ، وكان يرتعش من شدة الفزع عندما نهره سيده لوجوده بالصدفة على مقربة من الخميلة ، وأمره بالانصراف .

– وأين أجد هذا الخفير ؟

– لن تجده يا مروان لأنه قتل .

– من قتله ؟

– لا الأسئلة صارت تجدي الآن ولا أجوبتها .

– مجنونة أنت كأخيك تماما .. ولئن كنت أحسده على جنونه فانني لست أفهم كيف تدينين نفسك أمامي وتبرئين قاتلك وكأنما الرذيلة عندك والفضيلة شيء واحد .

- مهلا يابن عمى .. لا تقسو علىّ فما حدث كان قدرا .

- كل أهل الخطيئة يتعللون بالأقدار .

واختفت صفية حين كنت على وشك أن أهجم على روحها وأمزقها كما لو كانت جسدا حيا يستحق الثأر منه لكرامتى وكرامتك يا محمود .. فكرت فى العودة لابن الهوارى كى أدق عنقه وأهشم رأسه وأنتهى من نفسى ولكنى عدت اليك لا تخاذلا منى ولا جبنا كما كان عهدك بى من قبل ، وانما لأشاورك فيما يكون من أمرنا مع هذا الرجل .

★★★

أهلا بقلبك يا مروان مزروعا بالأمل فى مجىء الزمان الذى لا يجىء .. مخضرة أوراقه مزهرة مثمرة فنحلم ويحلمون وتحلمون .. آباؤكم أكلوا المن فى البرية وماتوا .. أما الخبز النازل من السماء فمن يأكل منه لا يموت ولا تسمع أذناه إلا هديل الحمام وغناء البلابل .. ها هم أهل التكية الموغلة فى القدم والاستسلام للأزمنة يكفون عن ضحكهم الساذج فيعملون كثيرا ثم يأكلون من خبز السماء فلا يموتون ولا يضحكون بلا موجب للضحك .. ومن يجوب أراضيهم الواسعة ويعبر البحرين والوادى ويروح الى الصعيد ويجىء الى الشمال فلن يرى رأسا من رءوس الشياطين الثلاثة أو ذريتهم ، ولو ظل يركب ويمشى ويطير ويعبر فانه لن يرى الا الخضرة والثمار والبيوت الصغيرة الواطئة المتعانقة ولن يسمع الا زقزقة العصافير ولن يشم الا أنفاس الزهور ثم يمشى ويركب ويطير ويعبر فلا يرى فرعونا فى صحراء موسى اذ يكتشف أنه لا صحراء ويسأل عن السنوات العجاف فيقولون له انها لن تعود .. ثم انه بحث وتحرى وسأل وتفحص فما وجد أحدا يصنع الكرابيج وانما وجد خبز السماء يلاحقه فى كل مكان فقال آتونى عبدا من عبيد البطن فقالوا لم

نجد ، فقال لهم آتونى عبدا من عبيد الفرج فقالوا لم نجد فقال لهم آتونى بعبد من عبيد العقل فقالوا لن نجد فضحك فى نفسه من علماء القرن التاسع عشر والعشرين والخامس والعشرين حتى مات من شدة الضحك ولما بعث من جديد سأل عن مخلوق آدمى ذى ثلاثة رءوس يدعى عثمان كمال عبد الله فأقسموا له أن أحدا بهذا الاسم لا يعيش الآن على أرض مصر أو على أرض عربية أخرى فتفكر طويلا حتى استطالت أذناه ثم عاد وسألهم عن مخلوق آخر ذى ثلاثة جذور يدعى مرعى عبد الرحيم الهوارى فأقسموا له أن روث البهائم قد امتزج بترابهم منذ آلاف السنين ثم تعفن فى باطن الأرض وعملت فيه الطبيعة مع الأزمنة عملا الهيا منه ندير الآلات ونشعل مصابيح الكهرباء فاطمأن وجاءنى سعيدا وقال لى اطلب ما تريد أيها العزيز فقلت الجمال فى اللون والطعم والرائحة والشكل والهواء والفضاء والأرض والقلب والزرع والجبل والنهر والوادى والبحر والسمك والبنت والولد وصفية والقول وأبى والفعل وأمى فقال لى ها هم بين يديك فظننته واحدا من أهل التكية القديمة قد عجز عن مسايرة الأزمنة حين سالت بين أصابعه بدلا من أن تسيل فى شرايينه فاخترقته بدلا من أن يخترقها ، ولكنه أوجدهم أمامى : صفية وأبى وأمى فقبلتهم وقبلونى ورفض أن أقبله هو الآخر فظهر رهط من الفراعنة الطيبين ولم يكن من بينهم رعمسيس أو منفتاح أو هامان بكرباجه النارى وقالوا لى انكم تطبقون الآن قوانيننا القديمة فلماذا لم تفعلوا هذا منذ زمان بعيد ويا خسارة أزمنة أمضيتموها فى فقر وعوز وظلم وقتل واستبداد وتسلط أفلا تعقلون ؟.. ثم غمرتنا فى جلستنا البنفسجية الضاربة الى الزرقة هالة من نور وهّاج غشيت أبصارنا فقيل لنا انه موكب الأنبياء الثلاثة ففرحت من قلبى لأننى سأرى موسى

وعيسى ومحمد ولكنى لم أرهم اذ لم يكن ذلك فى حدود قدراتى كمخلوق طينى يقف وحيدا على حدود الليل والنهار تناوشه خفقات قلبه فيغنى للشك واليقين .. وأخيرا رغبت فى الطرب فسألت عن تسجيل لأغنية مطرب عربى مات منذ آلاف السنين يدعى سيد دوريش كان يغنى قائلا « صبح الصباح فتاح يا عليم والجيب مافيهشى ولا مليم لكن المزاج رايق وسليم والرزق على بابك يا كريم » فأخذوا يضحكون منى حتى استلقوا على أقفيتهم ولم يصدقوننى بل اعتقدوا أننى قادم من تكية الزمان الغابر ثم قالوا لى بلطف ورقة « ان من يكتب مثل هذا الكلام فى زماننا - يا زلمة - لشعبنا فاننا نسوقه فى هدوء الى مصحة الأمراض النفسية » . فتحولت الى سلحفاة ونزلت الى البحر ، وقد أتاح لى بطء حركتى أن أجوس فى الأحلام الغارقة وأن أتسرب فى أزمنتها المتعاقبة ففوجئت بها تصحو وتحدثنى عن وحدة الأقطار والأمصار والأديان واللغات والطبقات والأجناس وهالنى أن أرى على رأس كل حلم جمجمة تشع هالات وضاءة خلاقة متجددة متحركة تبعث الدفء فى الماء فتتجمع فى محيطها الأسماك زرافات زرافات وتحوم من حولها عرائس البحر تطلق أناشيد الأمل للزمن الذى قد يجىء وربما لا يجىء .. ورغم ذلك فمازلت يابن الهوارى تتشبث بيديك وأسنانك وقدميك بأرض التكية ولا تريد الخروج منها . تنكر جريمتك ولا تعبأ بأحد .. تسخر من مروان - وأنت تعرف من هو مروان - فتستهين بتهديده ، وتلقى بملفك بين قدميه على الأرض .. واثق أنت بشدة من نفسك ، ولم لا ؟.

★★★

تآكلت أعصاب مروان فأرغى وأزبد .. « نقتله » .. « نخطف ابنته » .. نسى القانون الذى طالما حدثنى عنه .. « قدرتى على فعل ما

أقول تفوق تصورك » .. ما يهمنى اليوم هو تصور عبد الله لتلك القدرة التى أعرفها وأكرهها رغم رغبتى فى الافادة منها .

إما أن هذا الـ « عبد الله » مغفل كبير وإما أن ثقته بقوته ثقة حقيقية .. وفى جميع الأحوال فان الغدر بأهل الغدر وفاء عند الله والوفاء بأهل الغدر غدر عند الله .. هذا هو قانون على بن أبى طالب ، وهو القانون الوحيد الذى يصلح لهذه الحالة ، فليكن عبد الله الهوارى – المليونير – شيوعيا يرأس خلايا سرية تسعى لقلب نظام الحكم بالقوة وتمولها جماعات أجنبية ، وها هى منشوراتهم الحمراء المتفجرة بالحقد والثورة ماثلة بين أيدينا تدينهم حتى النخاع .

أنا لست أحب الدماء ، وما أتيت لبلدى كى أقتل أو أخطف ، إنما جئت لأزيل وساخة وبثورا علقت بها زمنا طويلا ولن يزيلها غيرى .. هذا قدرى ولست أملك أن أتحداه .. اضحك من فكرتى يا مروان كما يحلو لك، ولكن دعنى أضحك معك فهذا ما سوف يكون .

– هذا هو اللامعقول بعينه .. اقطاعى وشيوعى معا ؟؟

– فى التاريخ سوابق مماثلة .

– انها فكرة عبقرية لا تصدر إلا عن مجنون .

– التنفيذ الناجح هو العبقرية الحقيقية .

– اذن فهو شيوعى ، أما الأدلة فما أسهل تدبيرها .

– سوف أدع هذا لك ، فقد أصابنى ملل غريب .

واذهب الى من تشاء يا عبد الله من أصدقائك الأجانب . لن ينفعك أحدهم بشىء أو يضرك .. المصريون عندك رعاع فلماذا تلجأ

اليوم اليهم طالبا العون والغوث والتأمين ؟.. لا مجال للمقاومة أو المماطلة. من داخل قميص الجبس المتحجر الكريه أقبض عليك بتهمة محاولة قلب نظام الحكم وها هى منشوراتك ومحاضر اجتماعاتك السرية بعصابتك الحمراء هل تنكر ؟. أليست هذه صورك ؟. أما ان أردت الاطلاع على أدلة أخرى تؤكد مساعدتك فى السر للجماعات الارهابية الدينية المتطلعة الى الحكم باغداقك المال عليهم فلا بأس .. اننى أعرف أنك تتفوق فى بخلك على أبخل بخلاء الجاحظ ولكن قانون سيدنا على يحسم الأمر فلا مجال لمراجعة خليفة من الخلفاء الراشدين فى مقولة له أو حكمة . صياغة المنشورات أمر سهل .. المطابع موجودة .. أما الشهود فما أكثرهم وأما قانوننا الحالى فهو قانون الطوارىء وما أدراك ما قانون الطوارىء .. قانون الطوارىء يجب ألف قانون وقانون .أذرعه أخطبوطية جبارة . حين تلتف حول رقبتك وصدرك وذراعيك فانها تعتصرك عصرا يفجر الدم من أنفك وفمك ومؤخرتك السمينة ومقدمتك الرخوة المرتخية يا قاتل رضوان .. ان شئت السجن فلمن تسمح باغتصاب « نانى » ؟. عليك باختيار واحد من رجال مروان العمالقة الأشداء الذين سبق أن ألغيت عقولهم بفعل فاعل ، فاننى أكبر بكثير من أداء هذا الدور الصغير كما أرفضه لابن عمى حتى لو راودته نفسه على أدائه خاصة أنه يعانى خواء عاطفيا ساحقا منذ سفر زوجته سلوى للعلاج بالخارج جعلنى أعيد النظر فى مسألة رزانته وتقواه .

بقانون على بن أبى طالب أو بقانون الطوارىء أو بقانون محمود أبو النجا لابد من أن يخرج ابن الهوارى .. حتى لو قاوم الخروج وسجن فسوف أعمل على تهريبه من السجن لأطرده من مصر .

بحماس صادق قال لى شوقى :

– الرحمة يا محمود .

– بمن ؟

– بنفسك أولا ، ثم بأعدائك يا أخى .

– ماذا تقصد ؟

– وجهك يزداد اصفرارا .. أنت تبتعد كثيرا عن صلب الحياة .

بنفس الحماس قلت له :

– اذهب الى حشيشك وأم كلثومك ومسلسلاتك ودعنى لحالى .

– تيريز تنتظرك .. لا تحرم نفسك من نعيم الأحضان الدافئة .. أخرج من جحيمك يا صاحبى .

ظل يحدثنى طويلا .. التزمت الصمت والانصات .. يتضمن مشروع الموازنة الاسرائيلى لهذا العام زيادة عدد الجنود العاملين فى نقاط الحدود والأراضى المحتلة بمقدار مائتى واثنين وعشرين جنديا . البثور والجروح والتقيحات .. عثمان وكمال وعبد الله .. الحشيش والنساء والبخور وتحضير الأرواح والخرشوف المملح .. مائة وخمسون أسرة اسرائيلية تستعد للقدوم الى المستوطنات الجديدة .. انسطلوا يا أهل التكية الكبرى وغنوا وارقصوا حول آبار البترول وأبى الهول .. سيضربون مواقع صواريخكم السعودية الجديدة ولو وضعتموها داخل المساجد والكنائس .. من قبل ضرب صديقى بيجين مفاعل العراق ولم يتغير الرقمان اللذان تتلخص فيهما حياتكم .. السبعة والثمانون مازالا سبعة وثمانين .. نفس العدد لم يتغير .. فالسبعة أفخاذ النساء اللاتى يستلقين لكم بالحلال والحرام على ظهورهن فوق أسرة البيوت العربية ،

ولحكامكم فوق أسرة الفنادق الأوربية والأمريكية ، أما الثمانية أفخاذكم وأفخاذ أسيادكم النابهين .. قل يا شوقى

★★★

– نتفاوض ..

– لا مجال للتفاوض .. الرحيل أو السجن .

– أنا اقطاعى وشيوعى ؟.. هذا افتراء يا مروان بك .

– أعرف ..

– اذا ثبتت براءتى ضاع مستقبلك .

– لا تبدد وقتى وطاقتى .. ان لم تعجل فربما وجدت نفسك اقطاعيا شيوعيا ارهابيا !

– دعنى أتفاهم مع محمود أبو النجا نفسه .

– التفاهم معى يعنى التفاهم مع محمود .

– لو كنت تعتقد أننى أواجهك بمفردى فأنت مخطىء .

– كل من لجأت اليهم أبلغونى وسخروا منك وشمتوا بك ، وهم جميعا بانتظار سقوطك .

– أرجو أن تمنحنى فرصة أخيرة للدفاع عن وجودى .. أم تظن نفسك اله هذا الكون ؟

★★★

لو رأيت فى منامى منذ عشرين عاما أن المستشفى بكامله يعمل فى خدمتى ، وأن أصحابه لا ينزعجون من كثرة زوارى « المهمين جدا »، بل يرحبون بهم ويبالغون فى تدليلهم ، لكذبت بنفسى رؤياى بمجرد

صـحـوى من النوم . أيا كـان الأمـر فـيكفـينى أننى أرقـد على فـراش مصرى. كذابون منافقون لا يهم فـأنا مصـرى . عندمـا كنت فى أمريكا كانوا يسمونني « المصرى » . لو كنت أمريكيا لمـا نادونى بالأمريكى .. آه يا من لا تفـهـمـون مـعنى الغربة .. من هذا الكاتب الأفـاق الذى ألغى بجرة من قلمه مدلول القومية ؟

ها هم يعلنوننى بقدوم عبد الله الهوارى راغبـا فى زيارتى .. لا تسـمـحـوا بدخـوله .. قـولوا له عن لسـانى ان أول لقـاء بيننـا سـيكون الأخير ، وان موعده على أرض مطار القاهرة .

وأتصـفح جريدة يومـية لأقرأ عن الابن الذى هاجر من مصـر منذ عشرين عامـا لم يكتب خلالها رسـالة واحدة لأبيه ، وعندمـا وصلت جثته الى مطـار القـاهرة تبـرأ منهـا الأب ورفض تسلمـهـا فـدفنت فى مـقـابر الصدقـة .. وتنفلت أمـامى شـظية زمنية حـارقـة أتفاداها بقلبى الذى لم يصدأ بعد .. وتدور ناعورة الأزمنة .. تأخذ من الأعوام وتدور فتلقى بها الى قنوات الجفاف والظمأ والعطش الأبدى الذى لا يرتوى ، وأعمى عن دورانهـا ولا أسمع نعـيقـهـا ، وإذ بى أفـاجـأ بالحكمـة والمعـرفـة والخـبـرة والتجربة فأتحول إلى غبى متبلد ينعى أيامه وسنواته ويجتر الندم ويأكل الآهات ويبتلع الدموع ويتلذذ باستحلاب مرارة الحظ وتجرع مزازة عقله بعد أن تليّف وتجدر وانحشر فيه الكلام والاستسلام ، وآه منك أيها القلب الكليل انى أرثى لنبضك العبثى فأنت لا تتوقف حتى لو دفعنى اشفاقى عليك أن أرجوك أن تتـوقف .. كل الأعضـاء تنال نصـيـبهـا من الراحـة واللهو والمتعة فيما عداك يا مسكين .. وورود تيريز تفوح برائـحة نبضك .. تبعث بها اليك وتلح وتكرر ولكنها أبدا لا تجىء .. لو عرفت أنك تسكن بين ضلوع انسـان حقـيقى لجـاءت اليك بلهـفة العمر والشـوق والحب والأمل

والعطاء .. لو ما خافت على قلبها أن ينكسر ويتلظى ويتشظى لما ترددت في المجيء . لكنها تظن أنها تعرف من هو محمود أبو النجا أو كيف أصبح . مجنون ينبش في قبر زمان مات وتعفن . يحفر بأصابعه في الأتربة والحجارة حتى تدمي ولا يتوقف ، بل يزداد لهاثه وتتضخم لهفته للنزول الى مزيد من العمق ومزيد من المزيد فينسى وينسى حتى يدمن النسيان .. تأبى كرامتها أن تجيء وهى تعلم بتاريخ عودتى من قبل أن أعود . لقلبها كبرياء يرفض لها أن تأتى فتستبدل بهواها الورود .. كنت رجلا يا تيريز يعدل فى شجاعته شجاعة فرقة من الرجال الأقوياء . تعرضت للموت فى سبيلى ولم تشتكى ولم تجزعى .. كنت تأملين فى قلبى الكثير وما كان لك أن تعرفى أنه تحول الى مضخة عضلية لحمية توزع دما فاسدا على أعضائى وشرايينى وخلاياى .. « هذه شيكاتك أعيدها إليك .. خذها فلم أفعل كل ما فعلت طمعا فيها وانما لأجلك أنت يا جاحد » .. الحق معك يا تيريز .. لابد أنك تذكرين الرحلة الموعودة وتتشبثين بوعودى الزائفة .. صدقينى اننى لم أكن أخدعك حين وعدتك .. لكنى لم أكن أدرى أيامها أننى سأؤول الى محمود أبو النجا الذى صار .. حتى عندما نزعت قلبى من أحشائى وقلت لا تيريز ولا نجلاء إلا بعد أن أحقق ما وهبت نفسى لتحقيقه فاننى كنت صادقا مع نفسى .. لم أكن أدرى أن التأجيل كان تنصلا من التزامى الطبيعى نحوك .. لم أكن أعرف أننى شخت وتغابيت وبت أصحو وأنام أحلم بالانتقام من كل ما مضى من عمرى .. لا تسيئى بى الظن فتعتقدين أننى مازلت معلقا بخيوط نجلاء الواهية ، فقد مزق الواقع كل الخيوط ولم تعد عيناى تريان سوى الأجسام الصلبة الملموسة مثل بيتك الذى أعرفه وأعرف صاحبه الذى غادره يوما ولم يعد وأعرف أنه كان لابد أن أدخله بمجرد

دخولى مصر فأضمك الى صدرى ثم أعود وأدخله مرة ثانية بعد خروج الثلاثة لأعانقك وأقبلك وأخرجك منه لتدخلى فى حياتى وتدخلى فى قلبى .. ورغم هذا كله فاننى أعدك مرة ثانية لو عدت كما كنت بنفس قدرتى على الفرحة والانبهار والدهشة والتمنى، بأننى سأكون لك وستكونين لى .

★★★

لست أعرف – ولا أريد أن أعرف – كيف استطاع مروان أن يحيل افترائى العبثى بالجمع بين الشيوعية والاقطاع والاسلام فى سلة واحدة الى حقيقة واقعة ، حتى أنه استصدر أمرا قاطعا بالقبض على عبد الله الهوارى واقتحم منزله وأطلعه على القرار وعلى الصور والمستندات – المزورة – ثم أمهله يوما واحدا ليحدد فيه الجهات التى سيتنازل لها عن أمواله حسب مشيئته .

ألقى عبد الله الهوارى بأسلحته وملابسه وجلده ولحمه فتوجهت من فورى الى البنك وأودعت المائة مليون الثالثة والأخيرة ، ثم الى أبى وصفية حيث قرأت الفاتحة وبقيت مستمتعا بموتى وحيدا فى صمت القبور دون أن يلحظنى أحد . ولما ظهرت أمامى أشباح الأحياء لم أجد بدا من الخروج الى الدنيا فركبت عربتى وانطلقت .

فى المطار – رغم آثار الجبس اللعين – كان تدفق حيويتى للحياة مفاجئا ومثيرا عندما رأيت عبد الله وأمه وابنته نانى – التى أعتقد أن أحدا لم يغتصبها – يتجهون الى صالة الانتظار . سألنى مروان :

– ألا تريد أن تخاطبه ؟

– كنت شغوفا بذلك حتى لحظة وصولى الى المطار ، أما الآن فلا .

ولقد فوجئت أيضا - رغم حيويتى الزائدة - بأننى انسان حزين.

عندما عدنا الى الفندق أخبرنى مروان بأن سلوى ستعود فى نفس اليوم ، واتفقنا على تناول العشاء جميعا بهذه المناسبة .

بعد عودتهما إلى منزلهما بما لا يزيد على ساعة من الزمن دق جرس التليفون بغرفتى فى الفندق وكان مروان :

- غدا أقدم استقالتى من هذا العمل .

- وانى أهنئك على هذا القرار المجنون .

- لقد تأكدت أخيرا أن الجنون هو العقل .

وابتسمت فى سعادة ثم نمت نوما عميقا لم أشعر خلاله أننى نائم لأول مرة منذ وطئت قدماى أرض مصر ، وعقدت العزم على أن تكون الليلة هى آخر ليلة أنام فيها بفندق .

★★★

- ٤ -

أدركت أن رغبتى فى البقاء بالمقابر كانت أكثر من ضرورة حيوية بمجرد أن غادرتها إلى عالم الأحياء . حنين عنيف كان يشدنى للعودة اليها والغوص مع ساكنيها فى طمأنينتهم الأبدية . وجدت نفسى قد تجاوزت السبعين من العمر ففتحت بطاقة هويتى لأستوثق من أننى لم أتجاوز الرابعة والأربعين إلا بعدة أسابيع .

من اليوم تبدأ الحياة أو ينبغى أن تبدأ .. آن أوان الفرحة . إضحك .. عد طفلا كما كنت .. أطلق النكات مع أهل التكية فهم أربابها الأول .. ابحث عن مكاوى فستفاجأ بأنه تفوق على مروان وعلى صديقك الشاعر القصاص ، اذ تحرر من عفاريته وقضى على ارهاب زوجته حين طلقها فجاءت اليه باكية متوسلة ليملى عليها شروطه قبل أن يعيدها الى عصمته . ابدأ من جديد .. تيريز بانتظارك لم تزل فاذهب اليها ولا تتردد أمام ألاعيب الأقدار التى لا تنطلى إلا على المترددين ولا تتكشف الا للشجعان . كنت تخشى الموت قبل أن تحقق هدفك فمنحك الله الحياة لتشهد ثمرة كفاح عنيد دام عشرين عاما .. الآن قد استأصلت الأورام الخبيثة من الجسد . يحق لك أن تتباهى وأن تغتر بانجازك . عد طفلا عد سمكة عد سلحفاة عد عصفورا عد فضاء كونيا أثيريا بلا جسد . عد الى منزلك .. آه لو عشت بقية حياتى بطمأنينة الموت فما أروعها من حياة .

جاءنى مروان منهزما .. كنت واثقا أنه ندم على استقالته وأنه يود لو يعود إلى عمله من جديد ، أما الذى لم أكن واثقا منه فهو أن يكون حزينا من أجل صحة زوجته التى عجزت عن تخليد اسمه .. ان قدرتى على النفاذ الى قلب كل من أتعامل معه من البشر لم تعد محل شك ، فكيف يخيب حدسى فى ابن عمى ؟

– سلوى تطلب الطلاق .

سردت فى مذكراتى ما رواه مروان عن لقائه بابن الهوارى مثلما سردت ما لم يرغب فى روايته وكلى ثقة فى صحة ما ذكرت رغم أننى لست أملك حق التفتيش فى السرائر .. العلم حقا عند الله ولكنه منحنى منه قبسا أنفذ به الى القلوب والنفوس .. كان توقعى عند مولدى أننى لن أوتى حظا من علامات النبوة أو تحقيق المعجزات ، ولكنى اليوم حققت معجزة العمر فكيف لا يصدق حدسى ؟

– بعد كل هذه السنين تحب رجلا آخر وتريد أن تتزوج به .

– لا تخلو تقلبات النساء من جنون ، فاصبر عليها يا أخى حتى تتجاوز أزمتها .

لم ألحظ من قبل علامة واحدة فى عينىّ سلوى أو فى خلجات وجهها أو فى نبرات صوتها تدل على حقيقة ما أسمع الآن .. لكنه يحق لى اليوم أن أستمتع برفاهية التفكير فى مسألة عاطفية مثيرة كالعلاقة بين الحب والجنس عند المرأة .. من المؤكد أن هذه السيدة الفاضلة لم تستمتع بزوجها الاستمتاع الغريزى الذى هو حق من حقوقها الجوهرية .. ماذا أفادت هى من سهره طوال أحلى سنوات عمرها بين الملفات فى مكتبه بالوزارة أو فى مكتبه بالمنزل ؟. ماذا أفاد جسدها الشاب من

منصبه وشهرته ؟. لابد أنها ظلت تحلم طويلا بلحظات نشوة لم تتذوقها معه وتتوق كثيرا الى ابتسامة شبع تنفرج عنها شفتاها بعد ارتواء ، وتهفو زمانا الى اختلاجة رغبة تستبد بأعصابها المرهفة ، وتحن الحنين كله الى ارتعاشة شهوة مشروعة بين أحضانه الغائبة .

– انها عدالة السماء .

– وفيم أذنبت يا مروان حتى تعاقب نفسك بهذا الشعور ؟

– أنا أستحق ما حدث .

كما لا أفهم فى السياسة فأنا لا أفهم كيف يستعذب مروان تعذيب نفسه . لابد أن يكون لغرورى حد محدود رغم ما تعلمته من الشمس وما تعلمته من الجليد . هناك خط واضح من التفاهم يصل بينى وبين سلوى :

– أنا لا أحب هذا الرجل .

– لست أصدق هذا القول .

– بل اننى لم أحبه يوما من قبل .

– لماذا يا سلوى ؟

– ليس فى الحب « لماذا » يا محمود ، وأنا لن أبوح بأسبابى لمخلوق .

سيناريو اغتصاب صفية أبدعه خيالى ولن أشك لحظة فى مطابقته لما تم فى الواقع ، ولا يحق لأحد أن يسألنى عن السبب فى هذه الثقة . ترى ما هى أسباب سلوى كى تنقلب من نقيض الى نقيض ؟. لدى الآن متسع من الوقت يتيح لى أن أنوّع مصادر اهتماماتى بحياتى

وحياة الآخرين ، ألا ما أجملها من رفاهية .. أن ينعم انسان بتحقيق أحلامه كاملة ثم ينعم الله عليه بفيض من الأحلام لا قبل له بملاحقتها واستنزاف السعادة من رحيقها .. لكن وماذا بعد ؟.

عدت الى حيّنا القديم ويبقى وجه ربك ذى الجلال والاكرام . ها هى سلوى فى زى يتفجر بالشباب وابتسامة تنبض بالحياة والفرحة . تعلق ذراعهابذراع رجل آخر غير مروان . كذا فجأة وفى غضون أيام أصبح المستحيل ممكنا فلماذا الدهشة وقد خبرت هذا من قبل ؟. ومَن أدرانى بحالى غدا كيف يكون ولا تعلم نفسٌ ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون فماذا عملت أنا وماذا سأعمل ؟

لابد من التـفكيـر لابد من اعـادة ترتيب لنفـسى المنهكة التى أرهقتنى رحلتى اليها لأجدها تعانى شبعا كاذبا من الحياة بين الآدميين فى الزمان والمكان .. يا أهل أبى قير : الىّ بقارب كبير واملأوه طعاما وشرابا ودعونى أعيش وحيدا فى ملكوت الله .

★★★

يتعاقب الليل والنهار والشمس والقمر والنور والظلام ، وهسيس مداعبة الموج الهادىء لجسم القارب يتردد صداه الخافت فى الفضاء المحيط بى والسماء مطبقة من حولى فى كل اتجاه . تسمع أذناى أنغام الطمأنينة التى عرفتها فى المقابر وما أبدعك يا خالق الكون فامنحنى صفاء أبديا لا أطلب من بعده شيئا ولا أسعى لتحقيق مطلب ولتفعل بى الدنيا ما تريد .. تكفينى كسرة خبز وشربة ماء ونسمة هواء حتى أطير بين أسـراب النورس برأس صـغـير ومنقـار مـدبب وعـينين تنفـذان الى أعماق الماء .

على البر تداولت عنى شائعات لا حصر لها . حام جمع من الصيادين بقاربهم من حولى وخاطبونى بعيون متوجسة وكلمات قلقة . لا تخافوا يا بنى من قومى فانى سعيد مطمئن ميت يستمتع بأحلى حياة. لكنى لن أغيب هنا الى أجل غير محدد . سوف أخرج يوما الى البر انسانا آخر كالذى خرج من بينكم منذ عشرين عاما أو يزيد . دعونى أتطهر أيها الأحباب وما عليكم إلا أن تمدونى بالطعام والشراب ولكم ما تريدون .

جاء قارب خفر السواحل .. تساءلوا عن الشائعات . مجنون . مليونير . زاهد . كل هذه الشائعات صحيحة يا سيدى ولكن ماذا تريد منى ؟

– نفتش القارب .

– تفضل .. فتش عما شئت .

لست مطالبا بالاعتذار أيها الجندى العجوز الطيب . من حقك أن ترتاب ويرتاب رؤساؤك الضباط فى معيشتى المتواصلة بين الموج .. ما اسمك ؟

– أخوك عبد الخالق كريم .

– هل تمانع فى أن نشرب الشاى معا ؟

– سأعود اليك بعد انتهاء نوبتجيتى .

– هل أنت متزوج ؟

– ولى سبعة أبناء .

– كيف تدبر شئون حياتهم المالية ؟

– ليست هذه مسئوليتى . المدبر هو الذى رزقنى بهم . كل ما علىّ أن أعمل فقط .

كان لابد أن أتنورس فى التو واللحظة ، لكنى أجلت الطيران حتى أعطيه مما أعطانى المدبر . قرأت فى عينيه كلمات لا تقال . ودعنى على موعد بلقاء . عندما عاد لم أكن بالقارب . كنت محلقا فوقه صائحا مع رفاقى النوارس فى بهجة لا توصف . استهوتنى حيرته عندما عاد يائسا الى قاربه وظل به قليلا ثم عاود النزول الى قاربى ليبحث عنى من جديد . كانت بيده لفافة من الحلوى . أنا الآن لا آكل غير السمك يا عبد الخالق . عد بحلواك الى أبنائك السبعة ولنا لقاء قريب . أنا الآن محمود أبو النجا النواريسى . لو كلمتك لن تفهمنى فأنا مختلف تماما عن قرينى الأول اذ منحه الله البصر فقط ، أما أنا فقد أنعم على بالبصيرة . عيناه لا تريان أبعد مما تبصران > أما عيناى فتكشفان الآن مسرح الدنيا بأكمله وتستبصرانه .. آه لو تستطيع يا عبد الخالق أن تشاركنى ألمى وتخفف عنى صدمتى . الغرور والثقة أعميانى . ما أنفقت عمرى من أجله لا يساوى شيئا . كل ما ظننته وتصورته واستنتجته كان عبثا . حصيلة حياتى قبض الريح . ليتنى بقيت الفوانيسى وما صرت النواريسى .عد الى أولادك يا عبد الخالق ودعنى وحدى أستمع الى ما لم يقال وما أخفى عن غرورى وثقتى . أتفرج على المسرح وأتأمل مهزلتى وملهاتى ومأساتى اذ تفتح الستار عن قصر الهوارى الكبير وأبى واقف أمامه فى ذلة لم أتصورها .

أبو النجا : الخفير رضوان يشهد بما حدث .

الهوارى : ليكن ذلك .. لكن ابنتك لم تكن عذراء .

أبو النجا : سامحك الله يا باشا .

الهوارى : اسألها من الذى فعل بها قبل ابنى .

ثم تغلق الستار وتفتح وتغلق وتفتح والمسرح ماثل أمام عينى لا يكف عن الحركة .

★★★

أم صفية : طمئنى يا أبو النجا . ماذا فعلت مع الباشا الكبير ؟

أبو النجا : منه لله .

أم صفية : ماذا قال لك ؟

أبو النجا : لم يقل شيئا .

أم صفية : هل صدق رضوان فى روايته ؟

أبو النجا : نعم .

أم صفية : عبد الله هو الفاعل ؟

أبو النجا : نعم .

أم صفية : وماذا ننتظر ؟. أليس فى البلاد حكومة ؟

أبو النجا : اسكتى يا أم محمود . بالله عليك اسكتى .

★★★

نظرت بعين قلبى إلى نفسى فأسفت ونظرت بقلبى كله الى ما لا ينظر اليه فما رأيت شيئا سرنى أو أدخل الفرحة إلى قلبى .. والويل للمبصرين الذين لا يبصرون والعارفين الذين لا يعرفون .. استوى الكشف والحجاب وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور .

عبد الله : تهددنى اذن وأنت المسئول الذى يفترض فيه الحفاظ على أمن الشعب وأرواحه .

مروان : العين بالعين والسن بالسن .

عبد الله : أنا لم أغتصبها كما تقولان بالملف .. إنها لم تكن عذراء .

مروان : إخرس يا كلب (يصفعه على وجهه ثم يشتبكان فى صراع جسدى تكتب فيه الغلبة لمروان) .

عبد الله : (أنفاسه تتلاحق) لو لم تكن مستندا الى مقعدك لما ضربتنى بل ولما جرؤت على دخول بيتى

★★★

تنافست حيتان البر والبحر على التهام سفينتى فتحولت إلى حطام وغرقت لكن ألواحها الخشبية بقيت طافية لتنجو من ظلام القاع الذى هوت اليه السفينة ولمحت فى الأفق البعيد حمامة تحط على أرض خضراء فنظرت إلى الحجب ونفذت إلى ما ورائها من أسوار وأستار ولكن لم يبد لى إلا ما بدا ورميت نفسى بحثا عن الطمأنينة بين فضاء علمه وكونه مطلعه ومبلغه مبتداه ومنتهاه عله يعيد بدايتى ويحسن نهايتى.

صفية : مهلا يابن عمى . لا تقسو على فما حدث كان قدرا .

مروان : كل أهل الخطيئة يتعللون بالأقدار .

صفية : أنت آخر من يحق له الحديث عن أهل الخطيئة (مروان ينكس رأسه خجلا) هل نسيت أنك الجانى الحقيقى ؟

مروان : لم أنس .

صفية : ألم تعلم أننى تكتمت ما حدث وامتنعت عن ذكر اسمك ؟

مروان : أعلم .. أعلم .. ولكن كيف تسمحين لنفسك أن .... (صفية تقاطعه) .

صفية : اذن فالخطيئة حلال عليك حرام على غيرك .

مروان : كنت على استعداد لتصحيح الخطأ قبل ظهور بوادره .

صفية : لكن البوادر لم تظهر بالصدفة فهربت منى ومنعك جبنك عنى .

مروان : أيكون هذا ردك ؟.. تنامين مع كلب يا عاهرة ؟

★★★

ونزلت اليوم ضيفا على الشيخ الفقيه العالم الثقة النزيه الناسك الأبر السائح الصدوق جواب الأرض ومخترق الأقاليم بالطول والعرض أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتى الطنجى وهو الذى طاف الأرض معتبرا وطوى الأمصار مختبرا وباحث فرق الأمم وسبر سير العرب والعجم ثم ألقى عصا التسيار بحضرتى لا بالحضرة السلطانية العليا وطوى المشارق إلى مطلع بدرها بالغرب وآثرها على الأقطار ايثار التبر على الترب اختيارا بعد طول اختبار البلاد والخلق ورغبة فى اللحاق بالطائفة التى لا تزال على الحق فوقفت أمامه موقف التلميذ من أستاذه وعبرت له عن خوفى الشديد وقلقى الأشد من أن أعود الى بر مصر فأجد واحدا من الثلاثة قد مات .. قال لى :

– لا تكن فى أنفس الجهال أجهل منهم فربما مت أنت قبلهم .

– فكيف أدبر حالى ؟

– حصن نفسك من نوازل المكروه ولواحق المحذور ودع الباقى على الله .

فرويت له ما كان من أمرى واستمع إلىّ فأجاد الاستماع ثم سألته

القول فابتسم وامتنع ورأيته يتباعد عنى حتى اختفى ، ولكن كلماته لم تزل باقية معى .

★★★

رأيت اليوم وأبصرت فيما رأيت وأبصرت نجلاء تهيم فى عالم من أحياء ما هم بأحياء ولا بأموات فجسدها لا يخفى عن عينى وروحها لم تنفصل بعد عن روحى فقلت أحدثها عن نفسى وعن قاربى المحطم وتكيتى المنهوبة وعينى النورسيتين وعن ركوبى البحر وبقائى الموقوت وصدمتى فى مروان وخيبة أملى فى صفية ثم شكىّ فيما بلغت إليه بمعرفة العين ومعرفتى بالشك فيما عرفته وحدثتها فكان حديثى وسوسة وهمهمة وطنطنة وذبذبة فلم أعرف كيف أقول الكلمات ودخلت إلى معرفتى وخرجت منها ولم أخضع لحكمها - فربما كنت أعمى دون أن أدرى - اذ لابد لى أن أعود فما شهدته لم يكن ولن يكون مستقر الغايات ومنتهى النهايات وقالت لى نجلاء « سأعود اليك يوما يا محمود ولكن ليس الآن » وعندئذ نطقت كما ينطق الانسان وبلهفة عمرى الآدمى صرخت أناديها فابتعدت وهى تقول :

- ليس الآن .. ليس الآن .

ولأنها ابتعدت فانها اقتربت ، فابتعدت أنا حين غاصت فى نفسها وكان القرب بعدا فكان البعد قربا .

★★★

- ٥ -

ولأنها ابتعدت فإنها اقتربت ، فابتعدت أنا حين غاصت فى نفسها وكان القرب بعدا فكان البعد قربا وكنت نجلاء بغير أن أكون فكيف يتركنى حبيبى الى البعيد ويرحل تاركا أيامى بلا قانون . ماذا فعلت أيها المجنون بنجلائك وأى خسارة سوف تلحق بحياتك حين تخلو منى وأنا النور والوهج وسحر الحب وكل فنون العشق المجهولة . دعونى أحدثكم عن نفسى يا نوارس ، عن قانونى الذى اخترقه الفوانيسى فلم أعبأ به . تود الآن أن تعتذر لى والاثم يعربد فى جوفك والندم يحصد ضميرك ولكنى يا محمود لم أعد فراشتك الملونة وليتنى كنت قادرة على أن أكون كذلك فما أنا بأنا وقد توالت على القوانين فكان القانون الأول والأخير قانون أبى العظيم . بين أحضانه تعلمت صفاء الكلمة وجهلت الكدر والأحزان . لم أخجل يوما من الحوار معه عن كل شاردة جالت بخاطرى عبر زمانى كله . أناديه باسمه مجردا من اللقب الذى يسعد كل الآباء سماعه . خوفه علىّ شديد . يقول إننا نعيش فى مجتمع هو القسوة بذاتها لذاتها كما أسفرت عنها تفاعلات الأزمنة السالفة . على المرء أن يتسلح بالحرص واللين فى مواجهة هذا المجتمع ولو اقتضى الأمر عزلته . قانون أبى ينتمى إلى قيم الأديان ويقدس العمل الصامت الدءوب لأجل الخير . هو قانون للاستغناء والاستقلالية كلما أمكن . رأيت قانونه فى لوحاته التى كان يستغرق ليله فى رسمها ، وسمعته فى الموسيقا التى لم تفارق عزلته ، وأمسكت به فى يدى حين عرفتك ، ثم

انفلت منى فجأة عندما وضعت قدميك على سلم الطائرة منذ عشرين عاما .

عندما عرفت الحقيقة كان قلبى ساكنا صدرك لم يزل ، وتحولت عيناى المترقبتان إلى صندوق بريد يخلو من رسالة واحدة . أعيتنى الحيل فى محاولة فهم أسباب صمتك وامتناعك . أنت لم تحبنى يا محمود . صمتك الطويل ينسف كل مبرراتك فقانون أبى كان حقيقة صارمة أعلنتنى بقسوتك التى أسكتت صوت الموسيقا واستحالت بفعلها لوحات أبى الى خرق من القماش بالية . آه يا محمود بقدر جبنك كانت شجاعتى . بدأت بالخوف من الفشل وانتهيت بالخوف من النجاح فعدت وكأنك لم تعد . لكنى عدت الى الموسيقا يجلجل صداها فى أرجاء مسكنى المتواضع الذى زينت جدرانه بلوحات أبى فعادت اليها الحياة وما عادت خرقا بالية . وحين تجرأت على حب زوجى لم تضربنى قسوة المجتمع وانما جاءتنى الضربة من قسوة الأقدار . كان أبى يشيد بزمانه حيث قلت الأصوات وهدأت تحت ظلال اتساع عريض فى الأرزاق والمساحات والصدور . ورغم اتساخ زمانى فانى عشت زمان أبى فى مسكنى الضيق بين أحضان زوجى الذى لم يعرفه أحد ولم أشأ لأحد أن يعرفه . على مسامير دققناها فى الحائط كنا نعلق ملابسنا بجوار لوحات أبى وتناولنا الطعام الرخيص على أنغام الموسيقا وما أسهل تدبير زهرة أو زهرتين نزين بهما مائدتنا الصغيرة التى صنعها زوجى الجامعى بيده الماهرة وجعل منها مخزنا لكتبه العديدة . ولأكثر من ليلة كان طعام عشائنا أبيات شعر أخرجها من روحه ليغرسها فى روحى . أما لقاءاتنا الجسدية فكانت قصائد ملحنة يستحيل عليك أيها الخائف الأبدى أن تدرك معانيها أو تستشعر حلاوتها وعذوبتها وقوتها ورقتها .

مسكين ، فقدت الملك كله حين فقدتنى فأنا الملكة والملكة أنا ولا شريكة لى . مملكتى خبز وحرية وزهرة وقصيدة وبحر وموسيقا وبيت وأمان ووطن وكتاب مقدس . مملكتى لم تعرف الانتقام الذى دفعك اليه خوفك ، فاعلم يا محمود أننى التقيت بالثلاثة وانهم سوف يعودون الى مصر مرة ثانية حتى لو ماتوا بالرصاص أو الصقيع أو تحت الأنفاق ، فما أغرب العبث الذى أنفقت فيه عمرك معتقدا أن من حقك أن تكون قاضيا على غيرك تمتلك حق ادانته وتنفيذ حكمك عليه . أنا مازلت الملكة رغم انى فقدت زوجى . مات فجأة وبلا سبب ومازال قانون أبى صالحا لمواصلة الحكم . سوف تتزوج يا محمود وسوف تضحك من قلبك مرتين : الأولى حين تسمع صرخات وليدك الأول والثانية حين تمشى بخطوات مترددة فى جنازتك بينما تداعب خيالك الواهم أطياف الأورام الثلاثة ، وسوف يحول جهلك بأورام ما قبل التاريخ دون أن تفكر لماذا مات زوجى بورم مجهول - قيل انه حميد - رغم خروج أورامك الوقتية ولماذا دخلت من بعدها أورام عديدة جديدة لا حصر لها ولا لون ولا هوية ، شديد مكرها قوى فتكها فأقول يا نوارس يا نوارس .. ليس الآن يا محمود .. ليس الآن يا محمود .

★★★

- ٦ -

أغوص في لحم الماضي ويعبق المكان - في الزمان - برائحته ويزدحم بأطيافه وأشباحه ورؤاه فأحرق البخور وأبدد بيدى خيوط العنكبوت وتعدو أسراب الصراصير بين قدمي ويطير بعضها على الجدران والحوائط الرطبة العطنة العفنة التى أكلها الزمن وبال فيها ومازالت صور الأحباب معلقة عليها وقد رحل أصحابها إلى العالم الآخر البعيد القريب الغائب الحاضر ولم يعد بامكانى أن أراهم مرة ثانية مثلما لم يعد بامكانى أن أعود الى سنواتى الماضية وتطل عينا أبى فى دهشة لوجودى بهذا المكان الجذر النبع المولد حيث كان الضحك والبكاء فأقترب من عينيه المزمنتين وأنظر فتحيق بى المعجزات وأعود لأيام الحلم والبراءة والصفاء حيث ملكوت السماوات وهو جالس بجوارى على صخرة بالخليج يصطاد السمك وأناوله الديدان يطعم بها سنانيره وأرقب السمكة وهى تتراقص رقصة الموت الأخيرة قبل أن يلقى بها فى حجرى لأضعها فى وعاء أقول ان نصفه فارغ فيقول ان نصفه ممتلىء ويعجبنى قوله ويعبر أمامنا قارب خفر السواحل للبحث عمن يصطادون الأسماك بتفجير الديناميت فى العمق فيفسر لى الفرق بين الرزق الحلال والرزق الحرام ، وبعد ابتعاد القارب يظهر « الغتِت » حاملا أصابع الديناميت وهو لا يعلم أن تلك الأصابع سوف تنفجر يوما فى وجهه المجدور - بينما أقف

« الغتِت » أصلها صفة عامية تنم عن ثقل الظل وتنطق بكسر الغين والتاء .

للمضاربة فى بورصة نيويورك - لتشوه معالمه وتبتر أصابعه ونحمل أسماكنا إلى الشاطىء فنجلس معا إلى مائدة خشبية متهالكة على مقعدين من الخوص فى علبة صفيحية صغيرة على الشاطىء فيعد لنا الشاى صاحبها ومديرها الذى نسيت اسمه وان لم أنس أذنيه الطويلتين وابتسامته الظافرة البلهاء ونحن لا نعلم أنه سوف يهجر بلاهته وابتسامته يوما الى تهريب المخدرات فى اطارات السيارات حتى ينتهى به المطاف الى إلسـجن المؤبد دون أن أدرى أو يدرى أبى أن هناك مخلوقات آدمية تعيش بيننا ولكنها تتحدث بلغات أخرى وتأكل طعاما آخر بشكل آخر وتجيش صدورها بمشاعر لا ندركها وتسعد نفوسها لأسباب لا نعرفها وتشقى بأسباب لا نفهمها ويطيلون الليل ويقصرونه كيفما شاءوا وأسأله فى صباح ليلة مقمرة :

- أبى .. لماذا خلقنا الله فقراء ؟

فيسحبنى من يدى إلى قرب الموقد لأشم رائحة الخبز تفوح فى أرجاء البيت بأريج عجيب ويسألنى بصوت لا يعلو على زقزقة عصافير الصباح التى تسكن شجرة قصيرة معمرة تقيم بجوار فناء المنزل فى صمت قديم :

- هل تعجبك هذه الرائحة ؟

- أحبها جدا يا أبى .

ثم يصحبنى الى الشرفة الواطئة ويشير الى البحر بأمواجه الهادئة وطيور النورس البيضاء تغتسل بمياهه الزرقاء فيسألنى بصوت يكاد يتوحد مع هسيس الموج الهادىء :

- هل يعجبك هذا المنظر ؟

- يعجبنى جدا يا أبى .

فيجلسنى على ركبتيه ويغنى لى أغنية ساحلية عن البحر والناس والسفر والسعى إلى الرزق والفرحة بالحياة وابتسامة الطفل والأمل فى السعادة ثم يسألنى :

– هل تحب هذه الأغنية ؟

– صوتك جميل يا أبى .

ويسألنى بعد ذلك فى دهشة لم أكن أدرى أنها مرسومة ، وربما لم تكن بالفعل كذلك .

– فكيف تقول اننا فقراء ؟

– وما علاقة هذا كله بحاجتنا الى المال ؟

– سوف أشرح لك كل شىء يا بنى .. صل على النبى أولا .

وأصلى على النبى فيشرح لى طويلا لكنى لا أستجيب له بالقدر الذى كان يأمله فى ، واليوم أقول لعينيه المطلتين على وجهى فى دهشة اننى فهمتك يا أبى ولكن بعد طول سنين وعرفت أنك صدقتنى القول فاعذرنى لجهلى وقلة حيلتى وثرائى الشديد ونهمى للانتقام وامتناعى عن الأصدقاء وهجرى للأحبة وحيرتى فيما لا يستحق المزيد من الحيرة فدوائى حمد الله كما علمتنى أمى فى أمريكا وظلت تعلمنى حتى ماتت وعدت إلى صورتها التى لم تمت على هذا الحائط الذى مات واقفا راغبا عن التنازل عن صور الأحبة .. سأجدد هذا الحائط فانى أحبه وأحترمه وأقدره وسوف أبعث الحياة واللون والبهجة فى ذراته يا أمى ويا أصدقائى وصورتى مع صديقى الشاعر القصاص المجنون الذى أعجزه شعره عن الوفاء بواجباته تجاه زوجته فقذفته بآنية الطهو فى وجهه وألقت بكتبه إلى الشارع وقد زرته فاستقبلنى استقبال الفاتحين

وأكرمنى بالشاى والفول والطعمية وفحل البصل وشق البطيخ والابتسامة الطازجة التى لا يزيفها وعى ولا يطمس معالمها عوز وصافحت أولاده السبعة أشباه العراة وجمعت أشعاره فى ملف لأطبعها له وقلت لزوجته أن تعامله معاملة الأطفال لتضمن لنفسها حياة سعيدة وشرحت لها كيف عانيت وكم بذلت من اصرار حتى اهتديت الى مسكنهما المتهدم فى أقصى ضواحى المدينة وكيف انتشيت بتناولى الغداء معهم وأغلب ظنى أنها لم تفهم شيئا لكن عزائى أن الشاعر فهمنى اذ لمحت فى عينيه نظرة اشفاق على حالى فما أروع وما أصعب ألا تطيق نفس بشرية تحمل قدر من السعادة يفوق قدرتها وطاقتها على الاحتمال ومازلت أقول ان عالمى الحقيقى الذى أتبادل مع أربابه فهم الحياة وتحملها والاستمتاع بمعانيها هو عالم الشعراء والأدباء والفنانين فأين أنت يا نديم الآن من وقفتك الواثقة القلقة فى هذه الصورة أمام مكتبك بالعمل لعلك تحصى الآن ما جمعت من آلاف فلا تستطيع النوم قبل أن تضاعفها وتستولدها فى خيالك الفقير فتنسى أن تعيش وتمضى سنواتك من بلاد الى بلاد الى بلاد لتظل تائها فى توهانك أنت لا تعرف كيف تصطاد سمكة أو تستمع الى أغنية أو تداعب طفلا أما أنا فقد كنت يوما على وشك أن أصير الى ما صرت أنت اليه لولا أن نذرت حياتى لاستئصال الأورام الثلاثة ويا أسفى فما صح الجسد وما استقام اذ خلفت الأورام القديمة أوراما أخرى أشد خبثا تعمل فى الخفاء فى أنسجته وتسفر عن بثور وتقيحات كريهة الرائحة لا يتوقف نزفها رغم فشل كل محاولات عثمان مرعى وكمال عبد الرحيم وعبد الله الهوارى وتوسلاتهم للعودة .. هل هذا صحيح يا صفية يا ورم الأسرة الأكبر هل هذا صحيح يا أحبائى يا أهل التكية هل هذا صحيح يا خوفو ؟

فى البنك قيل لى انه لابد من تسوية محددة للموقف فالمبلغ لا يستهان بقوته . قلت لهم اكتبوا ما تشاءون وسوف أوقع . لست بحاجة الى فوائد الوديعة . بل لست بحـــاجة اليهـــا بأكملها . أعيدوا بهـا بناء « أبى قير » والضواحى المنسية الشبيهة بها . لن أناقش أحدا فى شىء فلست بحاجة الى ذرة اضافية من الطمأنينة على مستقبلى أو مستقبل أولادى ان تزوجت . قال لى كبير أغبيائهم اننى « محظوظ » فقلت لماذا قال لأن قيمة الدولار الأمريكى فى تزايد وقيمة الجنيه المصرى فى انخفاض (!!) فعاودنى الشعور بالألم فى مواقع عديدة من جسدى كنت قد شرعت فى نسيانها فجاءنى طبيب مشهور وتفحص مواضع القروح والالتهابات وسألنى أين أسكن فأجبت فنصحنى بالابتعاد عن الروائح الكريهة فقلت لا أملك فقال تخلص منها اذن قبل أن تتخابث جروحك فذهبت الى تيريز واستقبلتنى ببكاء منهمر وقلب منكسر ونفس صامدة فاحتضنتها كطفلة وقبلتها فى أنفها الفرعونى وضغطت بصدرى على ثدييها لأستوثق من شىء ما بداخلى فتذكرت نصيحة شوقى وتحدثنا عن الزواج وعن اختلافات الديانة وتقدم السن فحذرنى الطبيب من أن بعض الأورام تفوق فى خطورتها خطورة الورم الأمريكى والألم الأمريكى وتفرجت مع تيريز فى بيتها على التلفزيون فشاهدنا حضارة الجليد تبث سمومها فى صدور شباب التكية وقلت لها - رغم أننى لا أفهم فى السياسة - إن عصاة موسى - بضم العين - وراء كل مصيبة تحيق بنا وظهر رجل تجاوز الخمسين ومازال يشكو من أنه لا يجد مسكنا لأسرته ثم انهالت علينا اعلانات النصف الأسفل : ليسيكو . توبس . ليسيكو . توبس . فتذكرت شوقى الذى مازال يشك فى قواى العقلية ولا يجرؤ على مصارحتى بذلك ثم شاهدنا وجها بشريا شديد القبح يدعى صاحبه

شامير ويؤكدون أنه يكسر أذرع الأطفال ويدفن آباءهم أحياء ويطلق الرصاص على اخوتهم الشبان ويجهض نساءهم الحوامل فأشار الطبيب الى نبتة ورم جديدة وعاود تحذيره من شدة حساسية جلدى ولحمى وعظمى ونخاعى ورغم ذلك لم تتبدد طمأنينتى فالجسد مازال قويا ينبض بالحركة منذ انتزعت أورامه الثلاثة ولكن يعلم الله الى متى .. وجمعت صور الراحلين والأحباء وعرضت على تيريز أن تشاركنى فى وضع اللمسات الأولى والأخيرة لتجديد بيتنا القديم إما بترميمه وإما بهدمه وإعادة بنائه من جديد وأن تسعى معى بجهدها الذكى لنزيل معا مخلفات الصرف الصحى والمجارى والقاذورات من أبى قير بأكملها - لا من جوار بيتنا وحده - حتى لا نشم من حولنا رائحة كريهة فوافقت تيريز وبكت مرة ثانية وامتزج ضحكى ببكائها فى عناق حميم فولدتنى أمى بعد مضى ساعات من فجر يوم جميل حين تلقفنى رجل لا أعرفه وفتح صنبور المياه على جسدى ليغسلنى من الدم .

كتاب الهلال يقدم

الحملة الفرنسية

بين الاسطورة والحقيقة

بقلم

د . ليلى عنان

يصدر : ٥ اغسطس سنة ١٩٩٢

روايات الهلال تقدم

جامع الفراشات

(الرواية التي باعت مليون
نسخة في طبعتها الاولي)

تأليف

جون فاولز

ترجمة

عبد الحميد فهمي الجمال

تصدر : ١٥ اغسطس سنة ١٩٩٢

رقم الايداع : ٤٨٨٥ / ١٩٩٢
I . S . B . N

977 - 07 - 0181 - 5